حسن أوريد

الأجمة

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

دار الأمان
الرباط

حسن أوريد

الأجمة

دار الأمان
الرباط

الكتاب الأجمة
المؤلف حسن أوريد
الناشر منشورات دار الأمان
العنوان 4، زنقة المامونية - الرباط
الهاتف : 05 37 72 32 76
الفاكس : 05 37 20 00 55
البريد الإلكتروني E-mail : libdarelamane@yahoo.fr
الحقوق جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى : 1435هـ - 2014م
الايداع القانوني : 2014 mo 0072
ردمك : 978-9954-561-78-2

«وإنما شبّهَ العلماءُ السلطانَ بالجبل الصعب المُرتقى الذي فيه الثمارُ الطيبةُ والجواهرُ النفيسةُ والأدويةُ النافعة. وهو مع ذلك معدنُ السِّباع والنُّمور والذّئاب وكلِّ ضار مَخُوف».

ابن المقفع

القسم الأول

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

زعموا أن جماعة من الحيوانات كانت تعيش في أَجَمَةٍ عذُبَ ماؤها وطاب هو اؤها. وكانت على اختلافها تعيش حياة راضية، قانعةً بما تُدِرُّه أرضها، عازفةً عما سوى ذلك إلاّ من حريتها. كان لها نزوع للحرية شديد، حتى إنه ذهب لقبا عليها فسميت بالأحرار وأجمتها بأجمة الأحرار قد أعيت كُلَّ من رغب في إخضاعها وردَّته على عقبيه مدحورا..

وكانت الحيوانات تُصَرِّف أمورها حسب ما يعِنُّ لها من أمر ويبْدُر من خطب. يجتمع كبراؤها من ذوي الرأي، المشهودُ لهم بالتجربة والحكمة في مجلس الأكابر، أوالكراو، فيدبرون الأمر ويقررون في شأنه.. فإن فرغوا من حسم الأمر، انصرفت الحيوانات إلى شؤون معاشها، سباعُها وذِيبتُها وخرافها وغيرها، لا تنفرد بأمر أوتستأثر برأي. وإن انتهت من جني ما تنتجه الأجمة أقامت احتفالات قد تطول أوتقصر وَفْق ما تُنتجه الأرض، فتلتقي في منتصف أسمته أسايْسْ وتتبادل القريضَ وتتشبَّبُ التَّشبيب العفيف، أوتتراسل بالهجاء البريء أوتتغنى بمحاسن أجمتها.

ومازال دأب الأجمة كذلك إلى أن داهمها خطر الحيوان الذي يمشي على قدمين، وكانت الحيوانات تُحذِّر منه وتخشى خطره. فأجمعتْ أمرها وهبّت سباعها وخرافها وطيورها، لم يتلكأ أحد من واجب الدفاع والحماية إلاّ الذيبة. وكان فيها سبع امتاز بشجاعته وحسن رأيه وثاقب نظره، أبلى البلاء الحسن في العراك ضد المحتل وعاد على الحيوانات بالنصر، فالتفّتْ حوله وجعلته المؤتَمَنَ على أمورها، الناطق بلسان حالها، ثم أطلقت عليه لقب الغالب «يوگرثن» تكرمة له وإجلالا.

وسار فيهم يوگرثن سيرة حسنة، لا ينفرد بشيء ولا يقطع أمرا دون مشورة. ثم إنه أتى على الأجمة سَنَةٌ أجدبت فيها الأرض وشَحّت السماء، فأصاب الحيوانات ضُرٌّ شديدٌ وهلك منها عدد غير قليل. وكان يوگرثن يرى ما آلت إليه الأجمة من وَكْس الحال وقلة الزاد ونقص في المؤونة، فيطيل التفكير والتدبير، وقرّ أمره أن يجمع مجلس الأكابر يُشركه في ما عنَّ له من رأي، وكان يوگرثن يرى بناء مخزن يودع فيه ما يفْضُل من نتاج الأجمة تحسبا ليوم تُجدب فيه الأرض ويقل فيه الغيثُ وتغيضُ فيه الينابيع، فأقرّته الحيوانات على رأيه وباركته.

ثم إن يوگرثن اختار مرتفعا على جبل ليُبنى فيه المخزن، ليكون في منأى من العواري وليكون الارتقاء إليه صعبا إلا لذوي الرأي والحصافة من الحيوانات، مما تُؤْثر مصلحة الأَجَمَة على مصلحتها الخاصة ولا يعبث بها الهو ى ولا تستبد بها الأثَرة، فهبَّت الحيوانات جميعُها وراء هذا العمل الذي فيه صلاحها.

كان ذلك منذ أمد بعيد.. فلقد أعجلت الموتُ يوگرثن قبل أن يُتمَّ البناء. ولا تزال الحيوانات تَتساءل لولم تُعجلِ المنون يوگرثن، أكان يستطيع أن يَصُدَّ عن الأجمة ما لاقته من إعصار وواجهته من تقلبات؟ أم تُرى أن ما حاق بالأجمة كان مَدّا عاتيا لم يكن لردِّه من سبيل.

ما أن بلغ الحيواناتِ نعيُ يوگرثن حتى اجتمعت عِلْيتها لتقرر لمن تؤول إليه أعنّتُها، وقد شغلتها أمورها تلك حتى أنستها دفن يوگرثن. وقد فطن الخروف أعلّوش للأمر فراح وحيدا في جنح الظلام ليواري التراب مَن أخلص للأجمة. وكان أعلّوش هذا خادما مخلصا ليوگرثن، أثيرا لديه، وكان يوگرثن يُسرُّ له بأشياء كثيرة لا يخّص أحدا بها حتى بطانته من السباع. وقد أسرَّها أعلوش في نفسه، وساءت نظرته لعِلية مجلس الأكابر ممن استهو اهم السلطان حتى أنساهم أنفسهم.

وقد توزعت الحيوانات بين ما ترى توليةَ ما هو مشهود لها بالرّوية والحكمة والبصيرة وحسن التدبير. وكانت تنادي بهذا الرأي أغلب الخراف والحمائم وحتى الذيبة وهي أفطن الحيوانات وأذكاها. وكانت أخرى ترى أن يُعهد إلى السباع لقرابتها من يوگرثن ولقوتها وبأسها، وكانت تدفع بهذا الرأي الدجاج والكلاب.

ويختلف رواة تاريخ الأجمـة اختلافاً شديداً في شأن الحقبة التي

تربط بين حُكم يوگرثن وبين حُكم إزم الذي دام عهدا طويلا، وطبع تاريخ الأجَمَة حتى لا يكاد ينفصل عنها.

ويزعم غالبية الرواة أن الحكم الذي تلا يوگرثن كان حكما راشدا، للسباع والذئاب والخراف فيه نصيب، ويزعم آخرون أنه كان شيئا آخر، وأنه لم يسلم من الفتن، ويستدلون على ذلك من أخبار متواترة، وأخرى غير معلومة، ويَعْرِضون ذلك كله للنقد والتمحيص. ويذهب هؤلاء أن السباع اجتمعت بسقيفة أمالووكشّرت عن أنيابها لتُظهر قوتها وتعزل الذئاب حتى لا تلي شؤون الأجمة، ثم إن السباع تذّرعت بقرابتها من يوگرثن، وهي أولى الحيوانات به، ففرضت السبع أمود فرضا، ووعدت الدجاجَ والكلابَ بأن تكون القيّمةَ على شؤون المخزن متى انتهى بناؤه. وكان مَا لم تكن لها رأي بيّنٌ كالأرانب والهررة والجرذان. فأما الأرانب فكان ما تحرص عليه هو أن تمرح في مروج الأجمة، وأما الجرذان فقد أغرتها الدجاج ببعض الحَبِّ والفُتات، وأما الهررة فقد أنذرتها الكلاب لئن لم تختر السبع أمود فستمزقها إرْبا إرْبا، وكان أمود قد صحب يوگرثن في مرحلة من حياته، وأخذ عنه بعضا من خصاله. بيد أنه لم يكن إلا أداة في حوافر السباع، تحكم من ورائه لتُفَوِّت الفرصة على الذئاب.

ويحفظ تاريخ الأجمة أن السبع أمود لم يُعمِّر طويلا، وأن وفاته كانت إيذانا بعهد الذئاب. وقد ثقُل على الحيوانات ما كانت تلاقيه من السباع من تقتير، وما تأخذها به من غلظة، فتحولت إلى الذئاب. وقد قرّبت الذئابُ الدجاجَ وهي تُحسن الاتجار، فنمت التجارة وزكا المال، وعرفت الحيوانات بعضا من اليُسْر، ولكن الذئاب أسرفت في الإنفاق وأكثرت من التبذير وغلت في الأمر، وخصّت بها نفسها وآثرت قرابتها، ممّا أحفظ عليها الحيوانات جميعَها. ويتفق الرواة أن الخراف أحاطت بوَكْر الذئاب وغشيته، وقتلت الذيبة الآشِرَة، وقد تولّى بعدها شؤون الأجمة الخروف أعلوش. وكان أعلوش هذا شجاعا، شهما، تأثر بأخلاق يوگرثن، وكان ذَرِب اللّسان، فصيح البيان، قوي البرهان، وكان محبوبا في شيعته، وقد أخذ الحيوانات ببعض الشدة، فأنِفت منه وضاقت ذرعا بصرامته، وكانت قبلها قد ذاقت جزءا من نعيم، وأنِسَت بعضا من الرخاء، وعرفت شيئا من الحرية، والحيوانات إذا ذاقت طَعم الحرية لا تُساق بعدها بالشّدة، فقامت على أَعَلّوش، وأفسدت عليه أمره، وأكثرت من الفتن، فضاق عليه الأمر وحَزَب، رغم ما عُرف عنه من شجاعة وما اتسم به من حِلْم. وكانت الذئاب أشدَّ الحيوانات تآمرا عليه، واتهمته بهتانا بقتل كبير الذئاب. وقد لقي أعلوش حتفه قتيلا في جنح الظلام.

وأفضى الأمر بعده إلى فتنة كبرى اقتتلت فيها الحيوانات اقتتالا شديدا من أجل السلطان، وزعمت رؤوس الحيوانات أنها تفعل ذلك إحقاقا للحق، وسيرا على سُنّة سبعها الفذ يوگرثن..والحقيقة أنها لم تكن تريد إلا السلطان، وتزعم التأسي بيوگرثن وهي أبعد الحيوانات عن سيرته، وكانت الذئاب هي من تزعم الارتباط بميراث يوگرثن، وكانت أشدَّ الحيوانات مناوءة له قيد حياته.

ويُروى فيما يروى من تاريخ الأجمة أن الحيوانات لاقت عَنَتا شديدا جراء التطاحن والصراع، هلك فيه الزرع وجفّ الضّرع، ولم يكن لها مخزن تأوي إليه، فكانت تتطلع إلى من يخرجها من أتون الفوضى، ولم تعد تفزع لشيء فَزَعَها إلى الأمن ولا تتوق لشيء تَوْقَها للاستقرار.

وكان في الحيوانات سبع ماتت أمه وهو في الرضاع، كفلته ذئبة، وسقته لبنها، فتغذَّى منه، ودَرَجَ على أمور الذئاب يعرف شؤونها وطرائقها، وأسمته الذئبة التي أرضعته باسم فصيلته من السباع، إِزْمْ، فاجتمع له من الذئاب حيلتها، ومن السباع قوتها. ثم إنه أخذ يتحرك في الذئاب يستحثها على الاقتصاص من الخراف، ويذهب إلى السباع، فيدعوها ألا تترك الأمر لسواها وهي أولى الحيوانات

بيوگرثن، فالتفّت حوله الذئاب، واجتمعت عليه السباع. وقضى على الخراف المتمردة، فدانت له أسايس، وكان يتشوّف إلى أن تدين له الأجمة بكاملها.

وقد آل أن يسير سيرة يوگرثن بعد أن أحكم شؤون أسايس. فكان يسعى أن يُشرك الحيوانات في الأمر، ويستشيرها في كل خَطْب. وكان باديَ التعفف، زاهدا في أمور الدنيا. ولم يكن ذلك إلا حيلة ليستوثق من الأمر، وأين هو من حياة الشَّظَف التي عُرفت عن يوگرثن؟ وأين هو من زهده وتقشفه؟

ويوما دعا رؤوسَ الذئاب لعشاء لتدبر شؤون الأجمة، فأكلت الذئاب، كبارُها، وشربت، وغنت وطربت، فلما خرجت من عرين إزم اعترضتها الكلاب ومزقتها شَر مُمزَّق. ثم إن إزم بعد حادث العشاء الذي ذهب بأكابر الذئاب أطلق أنياب الكلاب في فلول الذئاب وفي رؤوس الخراف، تُنكّل بها وترهبها على السواء حتى بسطت سيطرتها على ربوع الأجمة، فدانت لإزم.

ثم إن إزم زعم القرابة من يوگرثن، وقّدم أنه من سلالته، ولم تكن الحيوانات تعلم أن يوگرثن قد خلّف عَقِبا، أو ترك ذرية،

ولم يُعهد عن يوگرثن قول يدعوإلى توارث السلطان. وبدا إزم على حقيقته بعد أن استوثق من الأمر، وضمن ولاء الكلاب التي كانت تُرهب الحيوانات، وآمن خضوع الدجاج التي كانت تستخلص نتاج الأجمة، فأضحى المستبدَ الآشر الذي يستأثر بالرأي ولا يُعصى له أمر، ويبتغي من الحياة نعيمها، ومن السلطان سؤدده. ثم إن الدجاج أطلقت مناقيرها على موارد الأجمة، فنال إزم من ذلك قِسطا وافرا، ونمت ثروته.

ولم ير إزم ضيرا أن يَظهر بمظاهر الأُبّهة، مؤذنا بعهد جديد في تاريخ الأجمة. وهكذا طلع إزم في الاحتفال بعيد الجلاء الذي يؤرخ لانتصار يوگرثن على الحيوان الذي يمشي على قدمين، محاطا بذوي قرابته من السباع في أسايس يتلوه نفر من الكلاب والدجاج. رأت الحيوانات شيئا عَجَباً لم تأنسه من قبل حتى في عهد الذئاب. فقد كان مجلس الأكابر حينما ينعقد، ينعقد في بساطة، ولا يُحاط أعضاؤه بهالة ولا يُخصُّ أحدٌ بامتياز، لذلك شُدِهتِ الحيوانات وهي ترى إزم محاطا بخاصته تُسْبَغُ عليه هالة وأبهة لم تعهدها. اعتلى إزم مرتفعا زُيِّن بعروش النخيل والغار، ووقف عن يمينه كبار الكلاب وعن شماله كبير الدجاج.. ثم إن إزم اصطنع ديكا يُحدِّث بفِعاله، ويُزيّن

صنيعه، وقد أذّنَ الديك أبْجاوى خلال الحفل فدعا لسيد الحيوانات بمديد العمر وموصول العافية وأشاد بخصاله التي هي نفحة من يوگرثن وامتداد لها، حتى إذا فرغ من مقالته مشى وئيدا إلى مكان إزم وانحنى إجلالا له، ثم قبَّلَ الأرض أمامه.. وبعدها خطب إزم في الحيوانات، فأشاد بمآثر يوگرثن وتعهد أن يسير سيرته وأن يذود عن حياض الأجمة، وأن يعمل على خير الحيوانات جميعها وأن يُتِمَّ ما ابتدأه يوگرثن من استكمال بناء المخزن. وأهاب بكافة الحيوانات أن تتجند لبنائه وهو الأمر الذي فيه صلاح الحيوانات جميعِها.

وما إن فرغ إزم من خطبته حتى هبّت الكلاب مفسحة له تتلوها الدجاج، وسار الموكب إلى أن بلغ عرين إزم.

وانقلبت الحيوانات إلى شؤونها. ولم تُخْفِ فلول الذيبة امتعاضها - وكان قد ضَعُف أمرُها بعد القضاء على أكابرها في حادث العشاء - وهي ترى أمور الأجمة تعود إلى السباع، وما كان يرضيها أن تؤول شؤون المخزن إلى الكلاب والدجاج وهي لا تبلغ مبلغها من الذكاء والمهارة. كان الحَنَقُ يملؤها، وتوعدت الكلابَ والدجاجَ ، وآلت أن تَلقى منها عُسْرا. أما الخراف فكانت أشدَّ الفصائل وفاء لتراث يوگرثن لا تحيد عنه قيد أنملة بفضل العلاقة التي ربطت بين

يوگرثن وخادمه الخروف أَعلوش وخَلَفِه إيزِمِر. ولم يُخْفِ الخروف إزيمر خيبته مما آلت إليه الأمـور. ومرة صدر إلى الشِّرْب، وما هي إلا لحظات معدودة حتى كر هلوعا مذعورا. فقد صدته الكلاب وزجرته. ورأى حِمى يقام غير بعيد من الشِّرْب.

وعند الصباح أذّن الديك أبجاوى أنَّ على جميع الحيوانات أن تنادي إزم بسيد الوحوش، وأن تُلاقيه ب «أفْرَاگ» في الحِمى حيث يُقام عرين خاص له.

لم تتوان الحيوانات عما طُلب منها من تخصيص جزء من نتاجها لبناء المخزن. كلاّ، فلقد كانت تدرك أن مخزنا يُحفظ فيه النِّتاجُ لوقت الحاجة ويُوَزَّع بالعدل والإنصاف هو أمر محمود ومنشود. كانت الحيوانات تدرك ذلك، ولذلك هبّت وراء يوگرثن يوم أن دعاها للبناء غير ضلعاء ولا وانية، وآست للفتنة الكبرى التي أعقبت وفاتـه وعطلت البناء.. ما أوغر صدور الحيوانـات هو أن ترى الكلاب تفرض عليها الإتاوات الثقيلة وتقتضيها منها قسْرا، وأن ترى الدجاج تجني من كَدّ الحيوانات أرباحا طائلة تغنيها عن العمل فتلهو وتتنعم على جنبات الشِّرب.

كانت الحيوانات تُردّد ذلك فيما بينها هَمْسا فتتحسرُ على الزمان الذي كانت تعمل فيه وفق حاجتها، ثم تطلق بعدها العنان لقرائحها، فتغني إثرها وتصدح وترقص. أما الآن فعليها أن تعمل من الغَلس إلى الغَسق لأداء الإتاوات، ثُمّ عليها أن تكتفي بما يتبقّى لكي تُقيمَ أوْدَها وَتزهَدَ في كثير مما تحتاج. لقد أضحى إزيمر يعمل ضِعف ما

كان يعمله من قبل ويحصل على أقل مما كان يحصل عليه بكثير، ثم يرى الخراف تكثر، وحاجتها تكبر ومؤونته ناضبة أو تكاد، فيبيع صوفه في صبّارة القُرّ للدجاج بأبخس الثمن. أحيانا إذا جنَّ الليل تَحلَّقتْ حوله الخراف فينبري يُحدّثها عن حال الأجمة وما آلت إليه من وكْس الحال وقلة المال وجبروت الكلاب وطمع الدجاج واستهتار إزم ونأيه عن ميراث يوگرثن، فُتصيخ الخراف السمع إليه وتحفظ كلامه.

أما الأرانب فلم تَعُدْ تَرِدُ الشِّرْبَ إلا لِماماً. وأما البلابل فلم تَعُد ترفع عقيرتها بالغناء كما كانت تفعل. وتردّدَ أن الكلاب تجتمع بالدجاج على ضفاف الشِّرْبِ وتدعو الغراب للغناء. ولم تتمالك الحيوانات من الضحك لما أنْ بلغها الخبر، فقد كان صوت الغراب مُنْكرا لا يبعث على الطرب ولا يستدر الشَّجَى. فلما أن بلغها أن إزم يدعوه أحيانا إلى أفرَاگ، كفَّت عن الاستهزاء خوفا من أن يُنزلَ بها عقابا لن تنساه، ثم أخذ الشك يُساور الحيوانات لعل أن يكون للغراب مواهب لا تعلمها والخَيْرةُ أن تكُفَّ عن الخوض فيما تجهل.

ويوما أفاقت الحيوانات على خبر مُفزع. فقد وُجدت دجاجتان قتيلتين بجنبات الشِّرب وقد جُردتا من ريشها.

وتوقفت أعمال بناء المخزن لذلك اليوم، وغشيت الكلاب الأوكار تبحث عن المشتبه من الحيوانات. وقبل أن يغيب قرص الشمس كانت الكلاب قد ألقت القبضَ على إزيمر.

لا تزال أجمة الأحرار تُردد كيف اقتِيدَ الخروف إزيمر إلى ساحة أسايس وكيف أَحْكَمَ الكلب إيدى أبْركان أنيابه في عنقه، ثم جرّه من كُرعيه فكُبِّل وظل طريحا بالساحة بلا طعام أو شراب، ولم تتورع الكلاب من أن تَسلخ جلده وقد فارق الحياة وتَعْهَد به للدجاج لتبيعه.

تُردّد الأجمة ذلك بكثير من الأسى وكثير من الخوف أيضا، فقد كان إزيمر معروفا بالزهد، مشهو دا له بالصبر ولم يسبق له قط أن مسّ أحدا بأذى. كانت الحيوانات تعرف عنه حلقاته مع الخراف ولم تكن ترى في ذلك بأسا لأنها كانت تشعر بمثل ما تشعر به الخراف من ضيم وجَوْر.

منذ ذلك اليوم شدّدت الكلاب الحراسة حول أفراگ، ولم يعد إزم ينزل إلى أسايس إلا لِماما في حراسة مُشدّدة. واجتمع إزم، سيد الوحوش وهو اللقب الذي ارتاض، بعد حادث مقتل إزيمر

بكبير الكلاب وكبير الدجاج، وبدا إزم حازما تحمل نبرته علامة الوعيد. وقدّم الكلب إدى تقريره، وكان مما قال إن الحيوانـاتِ متذمرةٌ وأن الذيبةَ قـد تستغل الوضع فتؤلّبَ الحيوانات ضد إزم. أما كبير الدجاج، فقد تحدث عن انخفاض أثمان ما تُنتجه الأجمـة في أسواق الغاب، وأن حجم إتاوات الحيوانات ينبغي أن يرتفع لُيعوِّضَ نقص أسعار السوق. واستمع إزم إلى ما ورد في مقالتي كبير الكلاب وكبير الدجاج فأصدر أوامره الحيوانية بتشديد الحماية على أفراگ ورفع أعداد الكلاب والإسراع في إتمام بناء المخزن بالرفع من الإتاوات، وأخيرا معاقبة كل من تنصل عن أداء الإتاوة بالذبح والسلخ، باعتباره خائنا لذكرى يوگرثن.

وانفضّ المجلس وقد عُهد للكلاب باتخاذ التدابير اللازمة لتطبيق أوامر إزم الحيوانية وهي أسمى مراتب الأوامر الصادرة عن إزم.

هكذا أخذت الحيوانات تغدو إلى المرتفع حيث يقام بنيان المخزن فتعمل بوتيرة لا تعرف الكلل في حمّارة القيظ وصبّارة القُر. تعمل تحت عيون الكلاب التي ترمقها بالنظر الشَّزْر وتتوعدها بالشر المستطير. فإذا راحت الحيوانات إلى أوكارها لتستجم، باغتتها الدجاج تقتضيها الإتاوة مصحوبة بكلب ذي أنياب قاطعة.

ومرة وقد بلغ السَّيْل الزُّبى ولْوَلتِ الأرنبة تاوْتولت لما أن طالبتها الدجاج بتقديم أرانبها الصغار. كان صراخها يملأ أرجاء الأجمة فيهزها هزّا وُيمزِّقُ هدوء الليل، ولم يكن صراخها لَيشفعَ لها، فقد حملها كلب في فكّيه وانقضت الدّجاج على الأرانب الصغار ووضعتها في سَلّة لتبيعها في سوق الغاب. وعند مطلع الفجر والحيوانات في طريقها إلى العمل رأت الحيوانات جثة تاوْتولت على قارعة الطريق وقد مزقتها الكلاب شرُمزّق.

وأذَّنَ الديك أبجاوى أنَّ تاوتولت لاقت جزاءها.

أما أعمال بناء المخزن فقد استمرت على قدم وساق.

أقامت حيوانات أجمة الأحرار احتفالات كبرى لتدشين المخزن. كانت ترى في بناء المخزن إثابةً على ما قدمته من جُهد ليوم تستفيد فيه من ودائع المخزن، ولذلك لم تُخْفِ بهجتها وقد حققت هذا الإنجاز الضخم.

زُيّنت جنبات أفراگ تأهبا للموكب الذي سيسيره إزم إلى المرتفع حيث بنيان المخزن بِعَلِ الربوة المطلة على أسايس، وتزينت الحيوانات بأجمل ما تملك. وسار إزم في موكب ضخم تطالعه الكلاب والدجاج وهو يرتدي تاجا مُرَصَّعا، واحتشدت الحيوانات حول جنبات الطريق المُفضية إلى بناء المخزن، ثم اتخذ إزم مجلسه على دكّة زُيّنت بعروش الغار والنخيل.. وصاح الديك أبجاوى لُيؤذِّن بوصول إزم، ثم انبعثت جموع الحيوانات تهلل، من نهيق وثغاء ونباح. واعتلى أبجاوى المرتفع وأفاض في أهمية هذا الحدث الذي هو مكرمة من مكارم إزم وشَمْلةٌ من عبقريته الفذّة وذهنه المتوقد وتفانيه في خدمة الأجمة، ثم دعا له بمديد العمر وموصول العافية حتى تنعمَ الأجمةُ

من حدْبه وَتفيدَ من عطفه، وتشملها مخالبه البيضاءُ التي لايُحصيها عدٌّ. ثم تعاقب الغراب على المرتفع وغنّى بعبقرية إزم وخصاله. وتكلّم إزم في خاتمة الحفل من الدكّة وعلى جنبيه كلبان شرسان، فأثنى على الحيوانات لِما قدّمت من جهد وبذلت من تضحية، واعتبر أن المخزن يؤرخ لعهد جديد في تاريخ أجمة الأحرار وأنه سيكون منطلقا لسعادة الحيوانات ورفاهيتها، ثم أشاد بالجهد الذي بذلته الكلاب والدجاج خاصةً في بناء المخزن، واعتبر أن الواجب يُملي عليه أن يعهد للكلاب بحماية المخزن وللدجاج بتسيير أموره جزاء وفاقا على ما قدمت.

وانتهى الحفلُ وفَصَلَ الموكبُ وسَطَ الأُبّهة. وانفضت جموع الحيوانات إلا الذيبةَ التي تخلفت حيث لا تُرى وتبادلت نظرات الاستهزاء فيما بينها.. ضحكت من غناء الغراب، وتندّرت من خطبة أبجاوى، وتوقفت عند تاج إزم الذي صاغته الدجاج لهذه المناسبة بما حصلت عليه من مبلغ بيعها لأبناء الأرنبة تاوتولت. ثم آلت أن تُعرقل مهمة الكلاب والدجاج في الحفاظ على المخزن وتدبير شؤونه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

قالت الحمائم فيما تحفظه من تاريخ الأجمة : في اليوم الذي تم فيه بناء المخزن، وبعد أن فرغت الحيوانات من الاحتفالات تحلّقتْ

حول البلبل في ليلة مقمرة غنى فيها غناء عذبا شجيا، غنى للحيوانات وهي ترفع القواعد لتبني المخزن بعَرَقها وكدّها، غنى لذكرى إزيمر، وتاوتولت وقد رحلا ضحيتين قُربانا لجهود الحيوانات جميعها التي بنت المخزن ليكون لها لا عليها. رددت الحيوانات مقاطع من شَدو البلبل ودموعها على خدودها تَطِّردُ.

ما عاد المخزن الذي بنته الحيوانات بعرقها وجهدها عملا تزهو به وتفخر، فقد استحوذت عليه الكلاب تَصُدُّ عنه بقية الحيوانات، وأصبح المخزن تحت إمرة إزم يُسخِّرُ ودائعه لأغراضه، ويستعين بالدجاج في تصريف مدخراته.

كان بنيان المخزن يبدومن عل المرتفع فيثير الرهبة في نفوس الحيوانات، لا تعلم شيئا عما بداخله إلا ما يَرُوج من نُتَف الأخبار لا تدري صحيحها من زائفها، ولعل أن يكون ما يبلغ الحيوانات مدسوسا؟ بيد أنها كانت ترى أشياء لا تُخطئها العين فتثير حفيظتها. رأت كيف غلب الزهو إزم، وكيف ركب الغرورُ رأسه فلم يعد يُشرك أحدا في مشورة ولا يستكين إلا لهو اه، ثم رأت كيف تغير حال الكلاب فاشتد بطشها، ووقفت على ما آل إليه وضع الدجاج فازداد دخلها وتضاعف استغلالها. رأت عجرفة كبير الكلاب، وعاينت بذخ كبير الدجاج واستيلائه على ودائع المخزن في صفاقة واستهتار. أما باقي الحيوانات فلم يتغير حالها ولا خَفَّ ما تلْقى من وحرمان وما

تلظى به من طغيان.. كانت حيوانات الأجمة تحسب أنها إذِ انتهت من بناء المخزن ستخلولشؤونها وتُطلق العنان لقرائحها، وكانت تتغاضى أثناء بنائها للمخزن عما كانت تكابده من ظلم وما تلقاه من جبروت الكلاب واستغلال الدجاج، لأنها كانت تحسب أن تلك فترة عابرة.. كان ذلك وهمها، ذلك أن عليها أن تعمل من أجل من يزعمون أنهم يحمون المخزن، وهم عِدَّة، ولا يُنتجون شيئا، ويمتازون بالصلف والعجرفة. لذلك لم تتغير وتيرة عمل الحيوانات ولم تتوقف الدجاج عن استخلاص الإتاوات ومن استغلال ودائع المخزن، ولم يَخِفَّ بطش الكلاب، بل ازداد واستفحل.

وكان من أهم ما عرفته الأجمة في تلك الفترة كتابة تاريخ يوگرثن. وقد عُهد لجماعة من الهررة أن تقوم بذلك تحت إمْرَة الديك أبْجاوي. ولم تكن الهررة من الصدق في شيء، ولا كانت تتحرى الدِّقة أوتروم الحقيقة. كانت تنتحل الأحاديث المنسوبة ليوگرثن، وتجتمع لتجيزها، ولم تكن تخشى أن يبْدر من الحيوانات ما يشكك فيما تزعم، لأن إيزمر الذي كان يعرف دقائق أمور يوگرثن، مما أخذه عن الخروف أعلوش، قضى. وكان مما زعمته الهررة لتنال رضى إزم، أن يوگرثن كان صاحب كرامات ومعجزات، وأنه كان يُحدِّث الأشجار والصخور

والجبال ويسمع نأمتها ويفقه قولها. وكانت الهررة تزعم أن يوگرثن انتصر على الحيوان الذي يمشي على قدمين بفضل جنود من السماء. وقد نالت هذه الأحاديث قبولا حسنا في قلوب الحيوانات، ووثقت أن ليوگرثن كرامات اختصته بها السماء، فلما أن استوثقت هذه الأحاديث في نفوس الحيوانات والتي كان يتلوها عليها أبجاوي آناء الليل وأطراف النهار قرّ قرار إيزم أن يبني ضريحا ليوگرثن لتزوره الحيوانات وتتبرك به.

ثم إن فريقا آخر، حسب ما زعم الديك أبجاوي، وجد حديثا ليوگرثن يقول فيه إن أمور الأجمة ينبغي أن تكون لخاصته من السباع التي تتحدر من صلبه، تتوارثه شبلا عن شبل، لكي تنال من بركته، ويناها فضله، وتأمن غوائل الزمن. ويشهد الثُّقات من رواة الأجمة أن يوگرثن كان يقول بأن يلي أمور الأجمة أصلحُها، ممن ترتضيه، بيد أن الحيوانات ما كان لها أن تشك فيما نسب إلى يوگرثن، لأن قول يوگرثن لا يأتيه الباطل، فعلى ذلك درجت وبه آمنت. وكان من تلك الأحاديث المنسوبة إلى يوگرثن، أنَّ على الحيوانات، إنْ هي تطمع في رضى يوگرثن، أن تقبل واقعها وتذعن لأمور سادتها.

وكانت الذئاب تهزأ من هذه الأقاويل، تهزأ من خُطَب الديك،

وأحاديث الهررة، ولم تكن تتردد على تلك الاجتماعات التي تنعقد كل أسبوع لتسمع ما كان يبثه الديك أبجاوي من ضرورة الانصياع لأولي الأمر ولكنها لم تكن تجرؤ على العُواء بذلك جهارا، لأن أحاديث الديك حول يوگرثن وسيرته تمكنت في نفوس الحيوانات، وبخاصة لدى الخراف، وكانت تحفظها عن ظهر قلب، وتَثْغو بها حينما تخلو في المروج بلسانها البعبعي. وكانت الحيوانات حينما يثقل عليها الضُّر، وتجهدها صروف الحياة، تذهب لضريح يوگرثن فتبثه شكاتها، وتتوسل إليه ببركته، وتستشفع به. وتردد أنّ من قصد ضريح يوگرثن وتشفّع به نال مُسؤله وأزيح عنه كرْبُه وأدرك مُناه. وكان الديك أبجاوي في كل اجتماع أسبوعي يردد بعضا من بركات يوگرثن التي شملت هذا الحيوان أوذاك، فتَرُدُّ الخراف ذلك بثغائها، مستبشرة فرحة. ولم تَشُكَّ الحيوانات في معجزات يوگرثن وكراماته، وقد أبدى الديك في ذلك وأعاد، ورددته الخراف في السهل والجبل، وعرفت هذه الفترة بعضا من هدوء ما بين السباع والخراف، وأمِن إزم خطرَ الدّواجن وقد انشغلت بأحاديث يوگرثن وكراماته.

وأوحى كبير الدجاج إلى إزم أن يُوسِّع عرينه، أفراگ، لكي يضاهي به الأمم وتفاخر به الحيوانات، ثم فرضت على الحيوانات إتاوات إضافية، ونزلت الكلاب على الحيوانات تُرهقها من أمرها عُسْرا. وقد سار إزم نفسه في مواكب يطلق عليها حرْكات ليستخلص من الحيوانات واجب الإشراك في بناء أفراگ. وقلما تخلوتلك الحرْكات من بطش وقتل وتحريق. كانت الحيوانات تُقدّم ما تملك، ولم يكن ذلك ليُرضي إزم. فكان يَقبض على كبار الحيوانات في الأقاصي فيجردها مما تملك، وقد يأخذها رهائن بأسايس غير بعيد عن عرينه فلا تعود بعدها إلى محلاتها، وكان منها من فقدت عقلها، فشوهدت وهي هائمة على وجهها في مرابع الأجمة. وقد يعمد إزم إلى نقل الحيوانات من محلاتها إن آنس منها قوة أوشوكة ويعهد إلى الكلاب بذلك، فتجردها من ممتلكاتها.. واستمرت تلك الحْركات ردحا من الزمن غير يسير، ولاقت الحيوانات من ذلك عُسْرا.

ويوما دُعي أكابر الحيوانات إلى أفراگ لحْضرة إزم وقد انتهت

أشغال العرين حتى أضحى حسب دعوى أبجاوى عجيبة من عجائب الدهر ودُرّة من دُرره تنضاف إلى مكْرُمات إزم. وقد كلّم إزم الحيواناتِ كُبراءَها مُزمجرا أن أفراگ هو مفخرة للأجمة، وهنّأها على جهدها وبارك لها في إنجازها، وأبلغها استجابته لما كانت تردده الحيوانات من ضرورة تعبيد الطريق التي تربط ما بين أفراگ بأسايس. وقد ابتهج عِلْيةُ الحيوانات لهذا القرار وأثنت على إزم، ثم إن إزم دعاها للغذاء مع كبير الكلاب وكبير الدجاج في أحد أروقة أفراگ، وقد بدا الكلب منشرحا، وبدا مثله كبير الدجاج.

وما أن غادر كبار الحيوانات أفراگ، حتى خرج الديك أبجاوي يُؤذِّن بساحة أسايس أن حيوانات أجمة الأحرار تلتف حول قائدها الهمام إزْم لاستكمال البناء، وأنه قرر من فرط حدبه على حيوانات الأجمة بناء الطريق الرابطة ما بين أفراگ وأسايس، وأن الحيواناتِ مدعوةٌ جميعها للإشراك في هذا العمل الضخم.

ولا جَرَمَ أن الحيوانات ستستفيد من هذا الانجاز خاصة أثناء فصل الشتاء حين يعم الوَحَل الطرقات فيستعصى السير، غير أن الذئاب كانت ترى أن إزم أمر بتعبيد الطريق إرضاء لحاجته أولا وليس إيثارا للحيوانات كما زعم أبجاوى. وكان على الحيوانات أن

تقتطع جزءا من دخلها لإنجاز هذا العمل، ولم يصدر عن إزم شيء يفيد نقص جِرايته، أوالنفقات الجارية لأفراگ، أوتلك التي تخصص لحُماة المخزن من الكلاب وأذنابها، ولا بدا أن الكلاب ستزهد مما كان يُجْرَى عليها، ولا أن تتعفف الدجاج مما تجنيه من أرباح، بل كانت جميعها في بحبوحة من نعيم، وكانت الكلاب تسير سيرها في الاستمتاع بملذات الحياة .. أخذت الحيوانات تردد ذلك همسا وتُعبر عما يساورها من إحساس بالظلم، وهي بعدُ لا تجرؤ على الجهر بما يخالجها خشية أن يَنزلَ بها عقاب كالذي نزل بإزيمر أو الذي حاق بتاوتولت..

وحدث أنْ ذهبت دجاجة لتستخلص الإتاوة من عند الذيبة، فما كان من هذه الأخيرة إلا أن جرّدتها من ريشها، ولما حاول كلب حماية الدجاجة انقضت عليها الذئاب وطرحته أرضا وانهالت عليه بالعض والنهش حتى فارق الحياة. ولاحقت الكلابُ الذئابَ لما أن بلغها خبر التمرد، واعتصمت الذئاب بأَكَمَةٍ يتخللها شجر كثيف، فحاصرتها الكلاب ولكنها لم تجرؤ على مداهمتها خوفا من كمين تنصبه لها.

ونما خبر تمرد الذئاب إلى بقية الحيوانات، وتردد أن الذئابَ

أثخنتْ في الكلاب وكادت أن تقطع دابرها. فأعلنت الأرانبُ عن تمردها ورفضت أداء الإتاوة، وحذت الخراف والجرذان وبقية الحيوانات الأخرى حَذْوَها، وملك الهلع الدجاج فخشيت على امتيازاتها، بل لم تعد تفكر إلا في حياتها فغادرت أماكنها على جنبات الشِّرب واستجارت بإزم في حِمى أفراگ. واضُطر إزم أن يتزعم عمليات استتباب الأمن فخرج من عرينه محاطا بكلابه الخاصة ومشى في الحيوانات، وقد أبان عن عزمه في الضرب على قوائم الفئة الضالة التي شقت عصا الطاعة وخرجت عن الجادَّة، فحقت عليها اللعنة وباءت بغضب من ذكرى يوگرثن، حسب ما أذاع أبجاوي. وحلّ إزم في جنده من الكلاب بمحَلَّة الأرانب وحاصرها، ولم يدم حصاره لها طويلا، فقد سقطت بين قوائمه وخرجت كبار الأرانب أذلة خانعة، ثم تحول إزم إلى مَحَلّة الخراف فحاصرها، واستمر العراك سجالا، بيد أن الغلبة كانت لإزم وكلابه. ولم تمض إلا أيامٌ معدوداتٌ حتى بسط إزم سيطرته على الأجمة وقد دانت له إلا أكمتُها حيث الذئاب معتصمة. وارتأى إزم أن تتحول الكلاب عن الأكمة لُيحكم قبضته على ما تبقى من ربوع الأجمة وليفرض إتاوات إضافية على الحيوانات تستخلصها منها الدجاج عن كُراع أوحافر وهي صاغرة، وتُترك أمور الذئاب إلى حين.

وتساقطت الأمطار مدرارا خلال فصل من فصول الشتاء فأحدثت شرْخا في بناء المخزن، وتحولت جهو د إزم إلى رأب البناء المتصدِّع. وكان يقف عليه وأعمال الترميم جارية فينفق في ذلك وقتا طويلا. سمعت الحيوانات ذلك وتناقلته ورددت سابقة الذيبة التي أضحت في حَلٍّ من الضرائب تدير شؤونها لوحدها دون خشية من بطش الكلاب وطمع الدجاج، فراودتها دعوة التمرد، فكان منها ما لبتتها خشية العقاب، وكان ما استهو ته، خاصة وأن إزم فقد كثيرا من هيبته لما أن أعلنت الذيبة عن انفصالها.

ولم تُلْحف الدجاج في اقتضاء الإتاوات، فقد ذاقت من غضب الحيوانات ما صرفها عن ذلك، وهي لا تستطيع أن تفرض إرادتها في غياب الكلاب التي أضحت مشغولة بترميم المخزن وقد أصابه التصدع، فعمت الفوضى وظهرت الضغائن الدفينة والأحقاد القديمة، فقرضت الجرذان أعمدة أفراگ وأقامت الأرانب حفرا في الطرقات، وأخذت الهررة تتسلق أفراگ وتنقل أخباره، وتتندّر بها الحيوانات في أسايس، وتحولت الخراف إلى الشِّرب تمرح فيه وترعى وقد كانت عنه مُذادة.

وما أن فرغ إزم من أعمال إصلاح المخزن حتى تحول إلى بؤر

الثورة غضبان حانقا وقد آلى أن يأخذ ثأره من الحيوانات المتمردة .. فقتل عددا كبيرا من الجرذان وعلّقها على أعمدة في أسايس لتكون عبرة، وأما الأرانب فقد حوّلها من مرابضها، وترك الكلاب تعبث بالهررة، وحار إزم في شأن الخراف وهي ذات عدد وشكيمة وصاحبة استماتة، وهي ما يرتبط بتراث يوگرثن، ورأى أن يستميلها بالحيلة، فترضّى أكابرها ببعض الحشيش. أما الحمام أثبير، فقد كان كتب رسالة إلى إزم لا تزال الحيوانات تذكرها إلى الآن بالنصيحة، وقد دعاه إلى إشراك الحيوانات في الأمـر وحذّره مغبة الاعتماد على الكلاب التي لا ترعى للأجمة حُرمـة ولا لحيواناتها ذمة وقد أكلت اللحم وامتشت العظم وأرهقت كاهل الأجمـة. فلما بلغت رسالة أثبير إزم أرسل إليه الديك أبجاوى وأتاه بصك أمان يدعوه لمقابلة سيد الوحوش ليسترشد برأيـه ويهتدي بثاقب نظره وينهل من حياض معرفته. وقصد أثبيرُ إزم بأفراگ وقد أيقن أن إزم قد ارعوى وأن نـداء الحكمة قد نفذ إلى قلبه.

حدّث الحمام أمْزيان عن الحمام أمْقران، أن جدَّهم أثْبير أمْزوار وأقام في ضيافة إزم يجالسه ويؤاكله، وكلما أراد أن يُفاتح إزم في أمر من أمور الأجمـة تعلل إزم بأمر حازب ودفع بُعذر لازب. وأعيى

طول المقام أثبير وملَّ عِشْرة الكلاب والدجاج، وضاق ذرْعا بعجرفة كبير الكلاب، وخِسّة كبير الدجاج. ورددت الذيبة أن الحمام أثبير ما أقدم على بعث رسالته دفاعا عن الحيوانات كما ورد في متنها وإنما طمعا في مكانة أبجاوى ليكون لسان الأجمة وحافظ أسرارها. وظل أثبير في أفراگ تحت حراسة الكلاب لا يبرحه. ويوما قُدّم إليه صحن فيه طعام فنال منه، ولم تمض إلا ساعات معدودات حتى أحس أثبير بألم في أحشائه فبرّح به الداء ولزمته الحشرجة إلى أن مات.

وخطب أبجاوى في أسايس أن الحمام أثبير قد فارق الحياة بعد أن حظي بشرف ملازمة إزم سيد الوحوش وأن الأجمة تحزن لهذا المصاب الجلل، فقد أخذت المنون أحد أبناء الأجمة الأبرار الذين أخلصوا لذكرى يوگرثن ووارث سِرِّهِ إزم، دامت مخالبه البيضاء ومكارمه الفيحاء على الأجمة السعيدة.

واستمرت الهُدْنةُ رَدَحا من الزمن ودانت الأجمة لإزم إلا أكمتُها حيث تحَّصنَتِ الذئاب. وذات يوم خرَّ سقف المخزن، فأضحى المخزن عرضة للعواري والأنواء، ولم يجد إزم بدا من أن يُحَوِّلَ اهتمامه إليه ليصلح حاله. ورأى إزم أن كلابه التي كان يُرهب بها حيوانات الأجمة قد كبُرت وشاخت. وأما الدجاج لما رأت نضوب ما يُجريه عليها إزم لنقص موارد المخزن لم تعد تَدين له بالطاعة كما كانت تفعل من قبل. وبلغ إزم أنها تتصرف في ودائع المخزن دون أن تُطْلِعَه على الأمر. وأضحى إزم في حيرة من أمره، فأركان صولته التي كان يرهب بها المتربصين والطامعين أضحت غير مأمونة، ونفقات صيانة المخزن في تزايد، والحيوانات الأخرى تتربص لُتجْهز على ودائع المخزن إن هي لمست ضعفا. وقد فكر أن يستميل الخراف، وتبين له أنها لا تستطيع أن تَردع بقية الحيوانات ولاهي تستطيع أن تدير شؤون المخزن، ولم يجد بدا من أن يستميل الذئاب. فبعث إليها أحد خاصته في جنح الليل حتى لا يَذيعَ الخبر وَيَبْلُغَ ذلك الكلاب خاصة، وهي على ما هي عليه من عداوة للذئاب لأنها تعرف ذكاءها وحيلتها ولأن الذئاب إن

تقربت من إزم فلسوف تُبعد الكلاب وتأخذها بما أسلفت من بطش وقسوة. وأسرى سبع تربطه وإزم علاقة قُربى تعود إلى اليوم الذي كان أهدى فيه إلى إزم لبوءة فارعة شغفته حبا. ونادى السبع أمازّال، وهو من بطانة إزم، في كبير الذيبة، فخرج الذئب وشّن وسط جمع من خاصته. وزأر السبع أنه أتى مبعوثا من إزم سيد الوحوش ليُشركها في تسيير شؤون المخزن، وأنها إن استجابت لِما يدعوها إزم عفا عما سلف من أمرها، إلا أنه التمس السِّرِّيَة فيما يجري بينها من حديث.

وتبادلت الذيبة الرأي فيما بينها. كان منها من أعياه العيش خُفية في الأكمة وأضناه شظفها، وكان منها من تلمّظت شفاهه لودائع المخزن. وتبادلت الذئاب الأمر فيما بينها، وبعد أخذ ورد قبلت الذئاب عرض السبع المبعوث، أمازّال.

وأذّن أبجاوى أن الذيبة قد التمست العفو من إزم، وأبى سيد الحيوانات إلا أن يعفوعنها ويصفح لما اتسم به دوما من حِلْم وما عُرف عنه من عفوعند المقدرة، وما سرى عن سماحته التي تسايرت بذكرها الركبان.

سمعت الحيوانات ذلك بكثير من الذهول. فقد حسبت أن الذيبة ثارت نصرة للحق ودفاعا عن العدل، وما كان ليدور بخَلَدِها قط ما سبق «توبة» الذيبة من لقاءات ومفاوضات.

ظلّت الكلاب إحدى الواجهات التي يتزيّن بها أفْراگ ومداخل بنيان المخزن أوحين تصحب إزم في مواكبه لإشاعة الرهبة وفرض الهيبة. وأما حقيقة الأمر فقد فقدت الكلاب سطوتها وضعفت صولتها وتبين ذلك على الخصوص حين أغارت على الأجمة حيوانات تمشي على قدمين، فبعث إزم كلابه إلى التخوم بوادي الحجارة، أو إيسَلّي لصد الغزاة، وعادت هذه مدحورة مهزومة. إثر تلك الهزيمة أيقن إزم أن أمور الأجمة ينبغي أن تُفحص وتعاد، وأن تصريف المخزن وتدبير موارده ينبغي أن يخضع لقواعد جديدة، خاصة وأن الموارد نقصت والأخطار أحدقت.

ولم يجد إزم بُدّا من الاعتماد على الذيبة وقد رأى ما حلّ بكلابه من ضعف ووهن. أخذت الذِيبة تغشى أفْراگ وتجتمع بإزم حول أمور الأجمة. كانت الذئاب ترى ألا محيص من فرض الإتاوات على الحيوانات، وكانت تدرك أن الحيوانات ستثور، وكانت تدرك أنها تَعْدِمُ قوة الكلاب وبطشها ولذلك فهي لا تستطيع أن تَحْمِلها على

الخضوع، فتفتق ذهنها عن حيلة وهي أن تحرّك خطر هذا الحيوان الغريب الذي يتربص الدوائر بالأجمة فتدعوالحيوانات إلى توحيد صفوفها لصد خطره وإلا وقعت الأجمة تحت إمْرته. والتقت الذئاب بالخراف وحدثتها طويلا عن هذا الحيوان الخطر. حدثتها عن جشعه وجبروته وحيلته وبطشه، وحذرتها من سطوته إن هو نفذ إلى الأجمة ولن تأمن أن يرُدَّ عاليَها سافلها، والأولى بالحيوانات أن تتراص صفوفها لدفع خطره، وحقيق بالخراف أن تُقرَّ الذئاب فيما تذهب إن هي أرادت أن تنال بركة يوگرثن. أما الدجاج فقد تحولت إلى الذيبة، وكان أن انفصمت العُرى التي كانت تربطها والكلاب وقد رأت تضاؤل نفوذها، وشوهدت الذئاب وهي ترتع في الشِّرْب مع الدجاج فرحة مغتبطة، في أبهى الحلل وأمتع اللحظات.

وترددت الأنباء أن الحيوان الذي يمشي على قدمين يزحف على التخوم ويُعِدُّ لذلك العُدّة، فتعاظم فَرَقُ حيوانات الأجمة. وما هي إلا شهو ر معدودات حتى حلّ واحد من فصيلة الحيوان يمشي على قدمين ذات صباح بساحة أسايس. رأته الحيوانات فتبادلت بينها النظر مذعورة. كان يبدو رشيقا خفيفا وتُقدَح من عينيه الزرقاوين شرارة ويفترُّ ثغره عن ابتسامةٍ ماكرة. كانت تنظر إليه باستغراب كبير، تتملى ملامحه وتدقق النظر في حركاته وتتفحص نظرته. ظلّت كذلك

تُصَعِّد النظر فيه وتُصَوِّبُه وهو ذاهل عنها وقد تَخَلَّص من بردعة على كاهله وأخرج منها شيئا عبارة عن صحائف يُقلّبها. ظلت الحيوانات تنظر إليه حتى الأصيل، ثم تفرقت أَيْدي سَبَا وقد زحف الظلام.

نام الحيوان الذي يمشي على قدمين بالعراء.. ألْفته الحيوانات صباحا بالساحة وهو يحمل أرنبا يُطعمه ويُربِّت عليه. انتابها وهي تنظر إلى هذا المنظر المريب شعورٌ هو مزيج من الخوف والاطمئنان. ثم وضع الحيوانُ الذي يمشي على رجلين الأرنبَ على الأرض وبَرْغَم شيئا لم تفهمه الحيوانات مشفوعا بابتسامة لم تستشفَّ معناها. ولما أن تقدم نحوها تخلّفتِ الحيوانات إلى الوراء وقد ساورها الخوف من جديد. أليس هذا الحيوان وفصيلته هو من هدّد الأجمة في الماضي السحيق وخاضت من أجل درْء خطره الغمرات بقيادة يوگرثن؟ أليس هذا هو الحيوان الذي كانت تُحذر منه الذئاب الذي إن نزل بساحة الأجمة بغى وتجبر؟ ولكن الحيوانات ترى شيئا غير الذي دعت إليه الذئاب، فالحيوان الذي يمشي على قدمين ذوالعينين الزرقاوين يتكلم بلسانها ويقول لها إنه أتى ليساعدها.

ونما خبر الحيوان الذي يمشي على قدمين إلى إزم، وتدارس الأمر مع بطانته من السباع، فأشارت عليه بالإجهاز عليه، ولكن إزم

أحجم عن ذلك خشية أن يثير ذلك حفيظة قَبِيل الحيوان الذي يمشي على قدمين فيجهزوا على الأجمة بكاملها وكلاب الأجمة أعجز من أن تردَّهم. لذلك أشار أن يُترك وشأنه فلا يمس بأذى إلى أن تقضى صروف الدَّهر أمرا كان مفعولا.

أقام الحيوان الذي يمشي على قدمين، أوأزروال، كما أطلقت عليه حيوانات الأجمة لزرقة عينيه، علاقات مع كافة الحيوانات. رأته الحيوانات وهو يُطعم الأرانب أويتبادل أطراف الحديث مع الخراف أو يشير على الحمير بحيَل تخفف عنها ثقل أحمالها. رأت الذيبة ذلك بكثير من القلق، فقد كانت تعلم قوة أزروال وذكاءه وهما خطر عليها وعلى مكانتها.أما الدجاج فقد تقربت من أزروال والتمست منه حمايتها وحماية بضاعتها وأموالها وأبرمت معه اتفاقا يجعل كل من مسّ الدجاج بسوء فكأنما قد مس أزروال نفسه.

وحدَث أنَّ لبوءة ذات جمال ساطع، أثيرة عند إزم أصابها وهن شديد وألم مُبرّح فخارت قواها ولزمت العرين واغتمَّ إزم لذلك غمّا كبيرا ونادى بطانته يستهدي بها، فأشارت عليه بأن تزور لبوءته المصونة قبر يوگرثن. ثم إن اللبوءة فعلت ذلك تبركا بقبر يوگرثن فلم تبرأ من عِلّتها أويُخفّف عنها الألم، إذّاك أشار الديك أبْجاوى بالحيوان الذي يمشي على قدمين، فله طَوْل وقوة، وله علم وخبرة، فأطرق إزم متفكرا ثم قال :

- وماذا لو سمعت حيوانات الأجمة بذلك وهو عَدُوٌّ لنا يتربص بنا الدوائر؟

قال أبجاوى :

- إن هناء سيد الوحوش وسلامة بطانته لهو أهم مما قد تردده الحيوانات من ثُغاء أوعُواء، وما عليه إلا أن ينادي على أزروال في جنح الظلام فلا تعلم الحيوانات عن ذلك شيئا.

ثم إن أبجاوى قصد أزروال حيث يقيم بأسايس ودعاه إلى أفراگ ليلا. وفحص أزروال اللبوءة وَوَخَزَها بإبْرة فُشفيت لساعتها. فعُظم في عيني إزم وأشار على أبجاوى أن يُؤتَى بأزروال بين حين وحين إلى أفراگ خُلسة في جُنْح الظلام. وكلما التقى أزروال بإزم قدّم له هدية يعجب لها إزم فيزداد تعلقا به وتقريبا له. واجتمع لإزم عدد كبير من الهدايا، وكان أحبَّها إليه جُعبةٌ إن نظر من ثُقبها الأعلى قربت البعيد وضخمته، وإن نظر من ثقبها الأسفل بدا القريب بعيدا وصغيرا. وكان إزم يصرف وقتا كبيرا يشاهد حالة الأجمة وهو بأفراگ من خلال تلك الجعبة، فيرى أحيانا ما يضحكه ويسلّيه كأرنب مُخْتَل بأرنبة على جنبات الشِّرب، وتارة يرى ما يُغيضه كذئبين يتبادلان الحديث فيما بينهما، فلا يدري فيم يتحدثان، وإن كانا يُدبّران أمرا.

وذات يوم قال أزروال لإزم والحديث بينهما ذوشجون :

- لوأراد سيد الوحوش لأضحت هذه الأشياء التي يَكْلَفُ بها مبذولةً له في أجمته.

قال إزم :

- وكيف ذلك ؟

قال أزروال :

- أن يتاجر سيد الوحوش مع العوالم الأخرى فيبيعها مما تُنتجه الأجمة من حَبٍّ وصوف وجِلْد ويشتري ما أراد من هذه الأشياء التي تروق له.

ثم إن إزم أخذ يفاتح أزروال في شؤون الأجمة ويشركه مشاغله. فالكلاب هرمت، والدجاج تستغل المخزن لأغراضها، والذئاب رغم ذكائها ومهارتها لا تُؤتمن، فهي لا تزال تعتبر نفسها الأحق بتسيير الأجمة، والخراف رغم عددها فهي لا تصلح لإدارة المخزن، ولا هي ذات خبرة، والكلاب والذئاب لن تقبل بها قيّمةً على المخزن. أما الحمائم فحالمة رغم سَعة اطلاعها، وأما الأرانب فلاهية.

ومازال أزروال يدعولفتح الأجمة ويحبب الاتجار لإزم ومزاياه وما سُيشيعه باب الانفتاح من الخير العميم وما قد يترتب عن ذلك من أمن حتى أذعن إزم لرأيه. وفاتح إزم أزروال ذات يوم قائلاً :

- وكيف تُفتح أبواب الأجمة وليس فيها من يحسن التدبير؟

قال أزروال :

- لو يأذن لي سيد الوحوش إذن لأسررت له بما يُعينه على تدبير شؤون الأجمة وترشيد أمور المخزن وانفتاحه على العالم انفتاحا يزيد من نفوذه في الأجمة وتتعزز حظوته في الخافقين.

قال إزم :

- فأشِرْ فإنك لدينا أمين.

قال أزروال :

- أن يستعين سيد الوحوش بالحمير.

فضحك إزم حتى خارت قوائمه. وبُهت أزروال وخشي أن يكون أتى سَيِّئا من القول. وعاد إزم للحديث بعد أن ثاب إليه رشده :

- أوَ ما علمت أن الحمير هي أحط حيوانات الأجمة، وهي لا تُشرك في أمر؟

قال أزروال وقد سُرّي عنه :

- أعلم ذلك، وليس المطلوب أن تكون ذات رأي أودهاء، بل أن تأتمر بما تُؤمر، وتضطلع بما يُعهد إليها من أمر، ما عَظُم منه وما خَسّ.

وأطرق إزم، ثم إن أزروال أضاف قائلا :

- إن سيد الوحوش ليرغب في تطوير أمور الأجمة وإخراجها من عزلتها وإرساء علاقات مع الخارج، وهو لذلك يحتاج أن يبيع بعضا من نتاج الأجمة، ويشتري منها ما لا تنتجه، لذلك وجب الاستعانة بالحمير لحمل الأثقال وتصدير النتاج.

قال إزم :

- وكيف ستنظر الحيوانات إلى ذلك، وكيف ستتلقى الذئاب الأمر، وما سيكون رد الدجاج؟

قال أزروال :

- هَمُّ الدجاج الإبقاء على مصالحها، أما الذئاب فينبغي مداراتها وترضيتها.

قال إزم :

- كيف ذلك وموارد المخزن متضائلة ؟

قال أزروال :

- أن يترضى كبراءها بالعطايا والهبات، ويجعل من ذلك سُنّة يتَّبعها في تدبير الحُكم، فيعزل كبراء الحيوانات عن قواعدها، فتنطاع له الأمور، وإن حدث أن لغا حيوان من الدهماء زُجّ به في السجن، فيكون ذلك عبرة للآخرين.

وأنْغَض إيزم برأسه علامة على الإقرار.

رأت الحيوانات شيئا عُجابا وقد أخذ إزم يعتمد على الحمير في تصريف أمور الأجمة. لقد رأت الحيوانات أشياء غريبة في تاريخ الأجمة كان منها ما أسرّها وكان منها ما أحزنها، ولكنها لم تر أعجب من أن تُحشر الحمير في شؤون المخزن. رأتها تخرج من مراعيها التي اعتادت أن ترتع فيها، فتتسلق المرتفع المفضي إلى المخزن، وهي تحمل حمولاتٍ مما تنتجه الأجمة، ثم تسير في قاطرات إلى تخوم الأجمة. رأت الحيوانات ذلك فأنكرته ثم ضحكت وهي ترى حمارا يدخل بوابة المخزن وهو ينهق والكلاب تنهره. ثم رأت الحيوانات صبرها وَجلَدها، مما مكّن بعضها من أن تغشى أفراگ وتحظى بملاقاة سيد الوحوش، إذاك خفّت حدة استهزاء الحيوانات.

أما الذئاب فقد أدركت أن أشياء كثيرة أخذت تعتمل بالأجمة تهدد مصالحها، وأدركت أن إزم الذي كان يصيخ السمع إليها قد تحول إلى هذا الحيوان الخطير ذي البأس والقوة. وكانت الذيبة تدرك أنها لن تستطيع أن تجاريَه في أموره، فهو ذوعلم وخبرة، ودهاء وحِنكة،

ولذلك أضحت في حيرة من أمرها. وأما الدجاج فقد أشاحت عن الذيبة وقد لمست تضاؤل نفوذها وتعاظم نفوذ أزروال. وقد حدث، يا لَلْأمر، أن تقربت الدجاج من الحمير ووعدتها خُلْسة أن تفسح لها في المرعى إن هي حملت لها بضاعتها للبيع خارج الأجمة وإن هي أطلعتها عن أولئك الذين يتعامل معهم أزروال.

وحدث أن تشاجرت دجاجة مع الذئب وشّن. حدث ذلك لما أتى وشّن يقتضي الدجاجة في مال وعدته به، فراعه أن الدجاجة صرفته مستكبرة في صَلَف وخيلاء. فغضب وشّن وكاد أن يُجهز عليها لولا أن باغته أزروال بقامته الفارعة ونظره الماكر مُحّدثا إياه :

- إنها في حمايتي، وإن أنت ألحقت بها أذى فكما لو أنك مسستني بسوء.

فارتدع وشّن ومشى لحال سبيله أولى له فأولى. إذاك أيقنت الحيوانات أن الدجاج قد أبرمت اتفاقا سِرِّيا مع أزروال يضطلع بمقتضاه بحمايتها وتُجري عليه من مالها. علمت الحيوانات ذلك فعجبت لقلة غيرة الدجاج، بل حتى إزم لما نما إليه الخبر غضب من قلة مروءة الدجاج، ولكنه وجد نفسه مُطَوَّقا بحاجته لأزروال. فلولاه لما نشطت التجارة ولما درّت أرباحا هي التي يقتني بها حوائج

يُزيّن بها أفراگ ويشتري منها الأسلحة التي يرهب بها الحيوانات. أي نعم، فلم يعد إزم المالك لكل ما يريد، المُسيّر لما شاء. ولقد عجبت الخراف لسيرة إزم المتخاذلة هاته هو الذي كان دوما يدعولذكرى يوگرثن ويزعم أنه المؤتمن على رسالته. فقد قاد يوگرثن جهادا مستميتا ضد الحيوان الذي يمشي على قدمين، وها هو أَوْلاء واحد من صلبه أو يزعم ذلك يُقرّب إليه ذرية الحيوان الخطر. وحتى الحمائم التي كانت تستنكف عن الخوض في هذه الأمور رأت أن الصواب أن تَفيد الأجمة من خبرة أزروال ومعرفته دون أن يُشرَك في أمور تصريف المخزن، وأن على إزم ألا يقطع بأمر حتى يُشرك ذوي الرأي والحصافة من الحيوانات في الأمر.

وكانت هذه المهمات تبلغ إزم، وكان تَبرُّمُ الحيوانات ينتهي إليه، فإن هو اشتد أبى أن يجاري أزروال في مطلبه، وإن خفّتِ المآخذ أذعن لمطلبه وسار إلى ما يدعوإليه. وكان أن أشار أزروال على ضرورة مدّ طريق يربط بين أسايس والتخوم يُسهّل حمل البضاعة وتصريفها، ويُكَسبُ من ذلك وقت ثمين. فمخاطر إتلاف البضاعة كبيرة إن تساقطت الأمطار والثلوج. ورأى إزم أن ما يدعوإليه أزروال هو الصواب. بيد أن مشروعا كهذا يستلزم أموالا ضخمة وإزم لن

يستطيع أن يفرض إتاوات إضافية على الحيوانات، ولا هو يستطيع أن يَحملها على الطاعة لحال كلابه، ولا هو يقدر أن يعطي الذئاب ذريعة تستغلها فتؤلب عليه الحيوانات وتدفع أن إزم ليس يُرهق الحيوانات عُشرا فحسب، بل يخدم مصالح أزروال. لذلك أحجم إزم عن استخلاص إتاوات إضافية.

قال أزروال :

- إن لسيد الوحوش عزما للسير قُدُما بالأجمة لما فيه صلاحها، وليس بعزيز عليّ وعلى فصيلتي أن تقدم لسيد الوحوش ما يشاء من أموال لتطوير شؤون المخزن.

ثم إن إزم أبرم عقدا مع أزروال يمنحه قرضا لمد الطريق من أسايس إلى التخوم. وتقرر أن تبدأ الأعمال في أقرب وقت ويُعهد إلى الحيوانات التي تمشي على قدمين القيام بها.

وأتى أزروال بخادم له من فصيلته، وكان أصغر سنا، ليس له لباقة أزروال ولا حنكته ولا له معرفة بحيوانات الأجمة وشؤونها. وقد سئم حياته مع الحيوانات فراح يغازل نعجة ترويحا للنفس وجَلْوا للملل، فاعترضها وهي ذاهبة للشرب لترِد، فراودها عن نفسها إلا

أنها أشاحت عنه، فلما رأى إعراضها انقض عليها، فما زالت تصارعه حتى انفلتت منه، ثم وجدت في طريقها كبشا وقد رأى صوفها المنفوش وحالتها المزرية فحكت له ما جرى، فذهب لتوّه إلى حيث يوجد خادم أزروال ولم يتهيب ملاقته، وما إن رآه حتى أسرع إليه وانهال عليه بالنطح، ومازال ينطحه حتى خرّ الحيوان الذي يمشي على قدمين طريحا على الأرض مثخنا بالجراح.

أقام أزروال الدنيا وأقعدها لِما أصاب خادمه وطلب مقابلة إزم، ولم يتأخر إزم في استقباله، وهدّد أزروالُ إزم أنه إن لم يقتصَّ من الكبش الذي نطح خادمه فإن ذلك سيغضب بلاده، وليس بمستبعد أن تبعث من فصيلتها من يقتص من الكبش، وليس يحسن أن يشيع أن إزم لا يستطيع ضمان الأمن في أجمته، وإذّاك تستغلها بلاده ذريعةً لتبسط نفوذها على الأجمة.

وجد إزم نفسه في حَيْص بَيْص. فقد كان يدرك مكايد بلاد أزروال وحيلها، واعيا بالمخاطر المحدقة بالأجمة، وكان في الوقت ذاته يدرك أنه إن عاقب الكبش لم يسلم من استنكار الحيوانات وغضبها. وبعدُ، فالكبش لا يعدوأن دافع عن عِرْض النعجة من الدخيل الذي أراد أن ينتهك حرمتها.

وأخذت الكلاب الكبش المتهم وأتت به إلى أفراگ ليلاقى إزم. كان إزم غضبان حانقا للمأزق الذي أوقعه فيه الكبش، ورأى الكبش غضبه فأخذ يقبل الأرض ويعفر جبهته في التراب عسى أن يشفع له ذلك.. وابتدره إزم محتدا :

- لِـمَ فعلت فعلتك التي فعلت؟

قال الكبش :

- هو يوگرثن أمرني بذلك..

واستشاط إزم غضبا وزأر :

- وهو يوگرثن يأمرني بمعاقبتك. أنا أولى الحيوانات بيوگرثن.

ثم استدار نحوالكلاب وهو يتميز من الغيظ :

- خذوه فغلّوه وألقوا به في غيابات الجُبِّ.

وعلمت الحيوانات بما حاق بالكبش من عقاب ورددت أنه لا يزيد أن دافع عن عِرض الأجمة من لوثة الدخيل. ولم تُخْف الحيوانات امتعاضها مما فعله إزم واعتبرته أمرا مشينا. وركب الذئب وشّن رأسه فأخذ ينشر في الحيوانات أنّ إزم أضحى يأتمر بأزروال ولا يعير

لمصالح الحيوانات أدنى رعاية. ثم إن وشّن شرع يقول لها إنّ طيف يوگرثن يزوره بالليل ويأمره أن يتولى مقاليد الأجمة وأنه غير راض عن إزم الذي خان ذكراه. أخذت الحيوانات تتحلق حوله وتستمع إليه وتسأله عن يوگرثن هل هو يعلم ما حاق بالأجمة، هل يعرف ما تكابد الحيوانات من جهد وما تلقى من ظلم، فيَرُدُّ وشّن أن يوگرثن يعلم ذلك كله، وهو يباركها جميعها ويدعوها إلى الالتفات حوله. ويتعلل وشّن أحيانا بأنَّ يوگرثن لم يزره فيغيب لأيام متتاليات فيظهر بعدها ويُسِرُّ إلى الحيوانات أن طيف يوگرثن تبدّى له أخيرا وهو يبارك هذا الحيوان أوذاك ويدعوها دوما إلى السير في ركاب وشّن.

ورأت الحيوانات لِما كان يخبرها به وشّن أبواب فرج لم تطرق ذهنها، فيوگرثن لم يتخل عنها، وهو لا يـزال دائم الاعتناء بالأجمة ولو هو انتقل إلى العالم الآخر، فقد تشمل أفضاله الأجمة وتعُمُّها بركاتـه.

ومالت بعض الحيوانات إلى وشّن وأسْرت معه في قطيع من الليل إلى الأكمة. وأقامت هناك مخزنا لها. واتخذ وشّن لنفسه أفراگ شبيها بأفراگ إزم. ولم تنقطع أخبار الأكمة، وظلت بقية حيوانات الأجمة تتطلع إلى ما يجري وراء الأكمة. وتوالت كرامات وشّن،

وتردد أنه يزحف على أسايس ليحرر بقية الحيوانات، وأنه يفعل ذلك لأن يوگرثن ترآءى له في المنام وأمره بذلك. ومنْ يعصِ ليوگرثن أمرا؟

وتوجّس إزمِ خفَية من أخبار الأَكَمة وقد ذاع خبرها وانتشرت كرامات وشّن، خاصة أنه رفع راية الدفاع عن رسالة يوگرثن، فجمع إزم العُدَّة وبعث كلابه لتُحاصر الأكمة، ودام الحصار دون أن تجازف الكلاب بالتوغل، حتى إذا آنس وشّن النُّهْزَة وانحلال سدى الكلاب باغتها على حين غرة فأثخن فيها وتعقب فلولها، وقتل منها عددا كبيرا، وأَسَر منها مثلها، فازدادت خشية إزم وخاصته، وأدرك أن خطر وشّن لا يتهدد نفوذه وحده بل وجوده، فقر عزمه أن يشتريَ مما اقترضه من أزروال سلاحا ويَدَعَ ما اعتزم من مدّ الطريق وتنظيم شؤون المخزن إلى حين.

واهتبلتها الدجاج فرصة سانحة لتنشيط تجارتها، خاصة وأن حمير المخزن هزُلت لضعف المورد، ولم تعد تستطيع حمل الأثقال إلى خارج الأجمة وإن فعلت ففي جهد شديد.. بل إن الدجاج، حسب ما تردَّدَ أعادت علاقتها مع الذيبة وأمدّت الأكمة، حيث الذئاب معتصمة، بما تحتاجه من غذاء ومُؤَن.. وقد كانت تلك مجازفةً خطرةً،

لوسمع بها إزم لما غفر للدجاج. ولمّا حذر أرنب دجاجة من عواقب ما تقوم به، أخبرته غير مكنوثة أن أزروال، وهو القوي الأشدُّ، يمد وشّن بالسلاح والمُؤَن. واستغرب الأرنب مقالة الدجاجة خاصة وأن أزروال يديم المكوث في أفراگ يَمْحُض إزم النصيحة ويبدومنه مقربا، فكيف يكون مقربا من إزم ويمد خصمه وشّن بالسلاح؟ وتردد لدى بعض الحمام التي كانت ترصد فِعال أزروال أن هذا الأخير يلعب على الحبلين، فهو ظاهريا يساند إزم، وباطنيا يدعم وشّن، وعلمت الحمام كذلك أن وشّن قد قطع عهدا مع أزروال لئن أديل له من إزم فسُيقْطع أزروال ما أراد من أراضي الأجمة.

قال الحمام أثبير أمْقْران : مذ حل أزروال بساحة الأجمة اختلطت الأمور وانقلبت المعايير. وقد استغل أزروال ضعف إزم وشيخوخة الكلاب وقلة غيرة الدجاج. فلو لم يتجن خادم أزروال على النعجة لما نطحه الكبش ولما ألَّب وشّن الحيوانات ولما بلغت الأجمة هذا الضعف الذي بلغته فطمع فيها الدخيل. ثم تدارك فقال :

- أم أن ضعف الأجمة كان قدرا مقدورا لِما عرفته من ظلم واستئثار بالرأي ؟

ثم حلّق في السماء.

كان وشّن شُغْلَ إزم الشاغل، لا هَمَّ له سواه لكي يكسر شوكته ويقضي على تمرده، خاصة وأن حركته عظُمت وخطره استفحل وقد قارب أسايس وهددها مرارا. وجمع إزم الكلاب وتوعدها إن هي لم تكْفِه شر وشّن فلسوف تلقى جزاءها ولسوف يستبدل بها كلابا شديدة. ولما نطق الكلب إيدى وقال إن فصيلة أزروال تعُدُّ العُدّة في التخوم لتغزوَ الأجمة وأن صلة أزروال بالدجاج متعاظمة وله علاقات مع الذيبة، نهره إزم وأغلظ له في القول، ذلك أنه لم يعد يستطيع أن يسمع الحقيقة لأنها تؤذيه.

كان إزم قد سعى أن يدرأ خطر بني زروال بتقريب واحد منهم عسى أن يستفيد من تجربته، وتبين إثرها أن أزروال كان وثيق الصلة بأهله، يمدهم بالأخبار ويهيء لهم السبل للإجهاز على الأجمة. وهل يستطيع إزم أن يواجه أزروال بالحقيقة وعلى خاصرته حركة وشّن تهدد وجوده؟ أليس الصواب أن يولي جهده بؤرة تمرد وشّن وأتباعه يطفئها ويدع أمور أزروال إلى حين.

وعادت فيالق الكلاب تجر جثثا لخراف وأرانب وجرذان تحارب في صف وشّن. وأمر إزم أن تقطع رؤوس الحيوانات المتمردة وُتعلّق بأسايس لتكون عبرة لمن سولت لها نفسها شق عصا الطاعة. ثم إن أبجاوي أذّن في حيوانات الأجمة التي احتشدت بأسايس فقرأ عليها خريدة من قصيدة عصماء حول النصر المؤزر الذي أحرزته جنود إزم الغطاريف. وأسهب الديك أبجاوي في الصَّدع بالفتح المبين الذي حققته فيالق سيد الوحوش، صاحب العز المكين. وما كان لهذا النصر أن يثلج صدر إزم أويزيح عنه هواجس خطر تمرد الذئاب. فوشّن وأتباعه من الحيوانات لا تزال معتصمة بالأكمة وهو يُذيع في الحيوانات أن هزيمة جنده امتحان لأتباعه وابتلاء لها قبل أن تنقاد لها أمور الأجمة. وكانت كثير من الحيوانات تُصدِّق هذا الزعم وترى أن النصر قريب. وكان مما زاد من قلق إزم ما تأكد من أن أزروال ربط علاقات مع وشّن، عدوه اللدود. ثم نما إلى إزم أن حيوانات من جنس أزروال أقامت في الثغور واحتلتها مستغلة حالة الفوضى والانقسام، ودعا إزم أزروال واستنكر ما أقدمت عليه فصيلته من أمر، ناكثة ما قطعته من وعد بحسن الجوار، ودفع أزروال أن فصيلته لم تنكث العهد وأنها لم تزدْ على أن أمّنت حماية جنسها في الثغور خشية أن يتكرر ما حدث لمعاونه، ثم أضاف : إن جنسه لا يطمع في الأجمة

ولا يريد إلا خيرها وإصلاح شؤونها، وهو يُكبر إزم أيما تكبير. قال ذلك، ثم انحنى له إجلالا.

وأسرَّها في نفسه إزم، فقد كان يعلم حق العلم أن ما دفع به أزروال كذب وافتراء، وأن بلاده تتربص الدوائر بالأجمة. وما حيلته إلا أن يتجرّع الغيظ، فلأزروال أكثر من سهم في كنانته، وليس ببعيد أن يوالي وشّن جهارا، وليس ببعيد أن يكون وشّن قد أطمعه بوعود شتى وليس من مصلحته أن يفتح جبهتين في الوقت نفسه.

أما الحمام أثبير أمقران فقد كان يرى أنه يمكن تدارك ما آلت إليه أحوال الأجمة من تمزق وفوضى إن هي استوحت ميراث يوگرثن فجنحت إلى التضامن ونبذت الأثرة ورغبت عن الاستئثار بالأمر. حدّث بذلك نفرا من الحيوانات وبعث بكتاب في ذلك إلى إزم..

وثقلت على الحيوانات خلال هذه الفترة من تاريخ الأجمة أمور المعاش، فكانت تشكوقلة الزاد ونضوب المورد واستفحال الغلاء. وغلبها الحنين إلى ما كانت عليه الأجمة قبل أن يحل بها أزروال، وأخذت تتحدث بذلك متناسية ما كانت تلقى، وما كانت منه تتأذى.

واستمر الحال كذلك رَدَحا من الزمن والأجمة ممزقة بين قسم

يدين لإزم وآخر لوشّن، وأبرم إزم صفقة مع أزروال لشراء الأسلحة، ولما كانت موارد المخزن ناضبة فقد اشترى البضاعة نسيئة.

وعلى حين غِرّة فاجأت كتيبة من الكلاب موكب وشّن وهو خارج الأكمة، واستعر القتال بين الجمعين واستماتت أتباع وشّن في المقاومة إلا أن الكلاب كانت أكثر عددا وعُدة فأثخنت في أتباع وشّن وتعقبت فلولها ونكّلت بما تبقى من ذئاب وأتباعها، وكان وشّن ضمن ما أُلقي عليها القبض. وكبّلته الكلاب ثم أركبته على أتان وأتت به إلى أسايس. وأذّن أبجاوى أن وشّن قد أحيط به وأن شمل أتباعه تشتت، فتجمعت الحيوانات بأسايس لترى موكب الكلاب ولتشهد بأم عينها وشّن مكبلا وهو محمول على أتان. رأت الحيوانات ذلك وأيقنت أن وشّن كان يَكذبها، فأين نصره الذي كان يعِد به؟ وأين حديث يوگرثن إليه؟ لقد كان وشّن مفتريا وقد لقي جزاء افترائه.

وخرج إزم إلى أسايس ليحتفي بالنصر تطالعه جموع غفيرة من الحيوانات، وتعالى الزئير والنهيق والثغاء والنباح احتفاء بمقدمه واحتفالا بنصره على وشّن المحتال. ثم توقف موكب إزم حيث يرقد جثمان يوگرثن. رأت الحيوانات ذلك فأكبرته، فإزم لا يزال يحظى ببركة يوگرثن ولولاه لما أديل له من وشّن..

وفي غمرة هذه الأحداث انقطعت أخبار أثبير أمقران، وتهامست الحيوانات بشأنه، وترددت الأخبار أنه نودي عليه إلى أفراگِ. ثم إن إزم نادى على سِرْب من الحمام أسبوعا بعد ذلك، وقد بدا منه الحزن واستبد به الأسى حتى دمعت عيناه، فقال لها إن يوگرتن استأثر أثبير أمقران لجواره. وأُسْلِمت جثة أثبير أمقران إلى السِّرْب. ودُفن أثبير أمقران ليلا. وتردد القول إنه قضى تحت الضرب لِمَا اعُتبر اجتراءً على سيد الوحوش والأجمة تواجه ظروف حرب.

واستدبرت الأجمة أحداث تمرد وشّن ومَقْتَل أثبير أمقران وأكبّت على شؤون معاشها، ولكن الواقع كان كالحا. فالمخزن أنفق، والديون تفاقمت وأزروال باسط نظره يتربص.

ومنذ أن امتدت مخالب إزم إلى أثبير أمقران أخذت الحيوانات تنظر إلى إزم نظرة ملؤها الحفيظة وإن كانت تتستر عما تكُنُّه له.

كان إزم باسطا ذراعيه بَمنْزه بأفراگ في يوم من أيام الربيع الذي أعقب القضاء على حركة وشّن واغتيال أثبير أمقران. وكان محاطا بخاصته من السباع وبأتباعه من الكلاب. كان بادي التعب، ظاهر الغمّ، قد أثقله الهَمّ. فالسماء شحّت والأرض أجدبت وموارد المخزن ناضبة أوتكاد، والحيوانات متذمرة والسَنة تنذر بشؤم. أما الإصلاحات التي أوعز بها أزروال فقد تبخرت ولم تُدِرَّ ربحا ولا عائدا، بل إنها أغرقت الأجمة في بحر من الديون. وكان إزم قد تعهد أن يُخصِص قسطا من الأموال التي تُودَع في المخزن إلى أزروال ليسدد الدَّين، غير أن حاجة الأجمة وقلة المورد دفعته إلى أن يُنْظِره إلى مَيْسَرة. بيد أن أزروال فرض أن يتضاعف مبلغ القرض على توالى السنين لأداء ما أسماه بالفوائد. وقد ضرب إزم وبعضا من حميره أخماسا في أسداس وتبين أن الأجمة لن تستطيع أن تفي بديونها أبدا.

ثم استولت فصيلة أزروال على الجزء الشمالي من الأجمة فاستفحل الأمر وحزب، خاصة وأن منابع عيون الماء من الشمال، وكانت جُنده قد أحكمت قبضتها بالجنوب وزعمت أنها أرض مَوَات.

كان ذلك يقُضُّ مضجع إزم ويؤرقه، ولذلك جمع حاشيته عساها أن تشير عليه بأمر. وتكلم واحد من السباع مما دأبت أن تنال رزقها رغدا بلا كد مما يُخصم للحاشية من عوائد المخزن فقال :

- نشّنُّها شعواء على أزروال وفصيلته فلا نُبقى منهم دَيارا في أجمتنا هذه الأبية..

وتملَّى إزم جهل قريبه بواقع الحال الذي تُجلِّيه خطابته، وكيف له أن يعرف حقيقة الأمر وهو بعيد عن معمعان المعركة وشؤون الأجمة، فالكلاب أضعف من أن تُرهب حيوانات الأجمة فضلا عن أن تخوض حربا ضد أزروال. وتكلم كبير الكلاب فقال إن الضُّر أثقل على الحيوانات وأن اليأس امتلكها وأن التذمر أخذ يستولي عليها، ففتيل تمرد الذيبة لم يخمد، والخراف غضبى وقد أحاطت بأفراگ وهي تتهدده، والحمائم تُحمّل أزروال وِزرَ ما آلت إليه الأجمة وتتهم إزم بأنه هو الذي مكّنه من ذلك حين فتح له الأبواب، وهي تجعله مسؤولا عما حاق بأثبير أمقران، وأما الجرذان فهي تنهب موارد المخزن، والحمير التي أريد منها أن تكون عونا على شؤون المخزن أضحت عالة عليه، والدجاج أصبحت محمية لأزروال ولا تتورع

من إظهار ذلك في غطرسة وتجبر، والهِرَرة تتمسح بأزروال لتنال ما يُسبغ عليها من الفُتات. كل ذلك يعلمه إزم، إن ما يريده هو مخرجا من الأزمة لا اجترار الكلام. فأما ما تدعوإليه السباع فهو تهو ر ومغامرة لن يدرأ عن الأجمة خطر الوقوع في براثن أزروال وجنسه، بل سيعصف بكل شيء، وأما ما تقوله الكلاب فتشخيص للداء وليس علاجا لحالها، بيد أن إبقاء الأمور على ما هي عليه لا يعصم من مخاطر التمزق والفوضى ولا يدفع خطر أزروال الذي قد يستغلها ذريعة للإجهاز على الأجمة.

وانفض الجمع، وعاد إزم إلى عرينه بأفراگ وهو يتهادى متثاقلا. كان وقر السنين يؤوده وأمور الأجمة تثقله. كان يريد أن يستريح.. أن ينعم بما تبقى من عمره دون أن يُكَدِّر صفوه فتنة الذئاب ولا احتيال أزروال ولا اندفاع الخراف ولا وصايا الحمائم.. أن يستريح هو كل ما يريد.. لوعلمت الذئاب بحقيقة أمور الأجمة هل كانت ستطمع في تسيير دفتها؟ ثم ما تراها تستطيع أن تفعل؟ فموارد المخزن في تناقص وأزروال متربص يتحيّن الفرص.

سار إزم بجنبات أفراگ وقد أفَلَت الشمس، ثم اعتلى ربوة

يتملى الأجمة والشفق الأحمر يلوح في الأفق. أسايس، أگدال، وعلى مرمى نظره تاوريرت حيث احتمت الذيبة في تمردها. ما أبعد اليوم الذي ولي فيه شؤون الأجمة! فلقد كانت أمورها سهلة إن هي قورنت بمشاكل اليوم. كانت الكلاب يومئذ مهيبة الجانب، وكانت الدجاج مخلصة، وكانت الحيوانات، أغلبها، تأتمر به. أما اليوم فالمشاكل معقدة ومستعصية الحلول ، ثم كانت ميعة الشباب وفتوته أيضا.

وقاطعه أبجاوى وهو سارح في تأملاته، ونظر إلى هذا الديك الذي اقترنت حياته بمسار إزم وكان بوقا له. كم من حقيقة ثلمها، ومن كِذْبة لفَّقها، ومن حدث ضخمه. ولم يتمالك إزم من شعور الاحتقار إليه، فلا فرق بينه وبين الدجاج التي باعت نفسها لأزروال رغم ما يدفع به من فروض الطاعة والولاء.

وتذكر يوم أن همس إليه أبجاوي باستحضار أزروال إلى أفراگ أول مرة. ألم يكن منذ ذلك التاريخ متواطئا مع الدخيل؟

وعفّر أبجاوى منقاره على الأرض، وأخبر سيدَ الوحوش أن أزروال يستأذن في مقابلته. وما تراه يريد؟ حيوان من فصيلته أصابته

معَرّة من حيوانات الأجمة بالثغور ويطلب الاقتصاص منه؟ قروض يقتضيها؟ شكواه التي لا تنتهي. فليحضر.. ودخل أزروال حِمى أفْراگ، وألفى إزم منشغلا عنه يرمق الشفق الأحمر. وأخذ أزروال يتكلم ولم يكن إزم يُصيخ إليه إلاَّ ما يبلغه من يَباب القول.. «وتتكفل فصيلتي بتنظيم المخزن وشق الطرق والحفاظ على الأمن والسهر على سلامة الحيوانات ورفاهها..»

وشمل الظلام الأجمة ولمّا ينفكِ أزروال يسرد صكّه :

«..ثم تُخصم الديون مما تُدِرُّه الأجمة، ويخصص نتاجها لبناء مخزن جديد ركنه من حجر وسقفه حديد..»

وأطبق الليل وهب نسيم عليل ومسح إزم أرنبة أنفه بقائمته.

«وبمقتضى الاتفاق يُعهد إليّ وإلى فصيلتي بالإشراف على شؤون المخزن الجديد وتسيير الأجمة وحمايتها من كل الأخطار الداخلية والخارجية».

ثم عطس إزم واهتزت أوصال الديك أبْجاوى الذي كان مُسمَّرا بجنبات أفراگ يُقلّب النظر بين إزم وأزروال.

وساد الصمت وقد أنهى أزروال قراءة الصك. ثم أشار إزم برأسه إلى أزروال فتقدم إليه، وطرح الصك على الأرض. وبصم إزم عليه إزم بمخلبه دون أن ينظر إليه. ثم ولّى الأدبار ودخل العرين.

القسم الثاني

لم تعرف أجمة الأحرار يوما أعظم من اليوم الذي طردت فيه أزروال أمزوارو ، الذي كان خلف أباه أزروال. كان يوما مشهودا، فلقد استعادت حريتَّها التي فقدتها يوم أبرم أزروال اتفاقا مع إزْم فألقى بجِرانِه على الأجمة وأمسك زمامها وأضحى المالك لكل شيء. وقد سعت الحيوانات جُهْدها أن تَرُدَّ أزروال على عقبيه، فثارت وتمردت، ولكنَّ قوة أزروال كانت أكبر من استماتة الحيوانات، فأحكم قبضته على الأجمة وأضحت الحيوانات غريبة في أرضها فَرانَ عليها الخمول. ثم ولي أزروال أمزوار وشؤون الأجمة بعد وفاة والده أزروال، فبنى معصرة يعصر فيها الزيت ومدَّ الطريق بين طلل المخزن العتيق الذي أضحى يبابا، وبنى مكانه قصبة وسخّر أجحاشا لخدمتها واستعان بجِراء لمراقبة الحيوانات وروّضها لهذا الغرض عوضا عن الكلاب الهرمة. أصبحت الحيوانات غريبة في أرضها. ولم تكن السباع في شيء من الأمر واكتفت بما كان يجريه عليها أزروال أمزوارو، وركب الذيبةَ الخنوعُ ولم تعُدِ الخراف تنطح

وقد قضى أزروال أمزوارو على أعداد كبيرة منها وبتر قرون ما تبقى منها، فكانت سائمة ترعى الشوك والقتاد، حتى الدجاج نضبت مواردها وقد تَحكَّم أزروال أمزوار وفي موارد الاتجار وقنواته.

ثم غلب اليأس الحيوانات وأيقنت ألا سبيل لزحزحة أزروال أمزوارو وجنوده، وأثناء ذلك كانت الحمائم تستثيرها حتى لا تخلد للقنوط أوتستكين لليأس. كانت تحدثها عن أجدادها الذين ردّوا فصيلة أزروال على أعقابه إبّان يوگرثن فلم تثنها منعته أوبطشه عن واجب الدفاع ، ثم تحدثها عما ترى حين تُحلّق في السماوات فتنظر إلى عالم أزروال أمزوارو من حيث أتى وما يأخذ به بنو جِلدته من أسباب المساواة والحرية في بلادهم، فتُصيخ الحيوانات السمع ويعود إليها بعض من اليقين وشعور بثقة النفس كبير.

وقد يغني البلبل فُيحيي ذكرى أمجاد الأجمة والزمان الذي كانت فيه مالكة لأمرها ويَعِدُها بيوم تعود فيه القوس لباريها والأرض لمالكها، فيثير ذلك الحماسة في نفوس الحيوانات ويبعث فيها العزم. وهكذا انبرت الذيبة تخطب في الحيوانات وتدعوها لرفع نَيْر الاستغلال والقهر، وتُبشّر بعهد جديد ينتفي فيه الظلم ويسود فيه العدل وُتوزَّع موارد الأجمة بالإنصاف. وكان أسافو أبرع الذيبة

خطابة ما أن تسمعه الحيوانات حتى تهتزُّ أوصالها لسحر كلماته وقوة تأثيرها في نفوسها.

وكان أن تمردت الخراف ورفضت أن تُجزَّ والجوشديد البرد. فلما أصرَّ خُدّام أزروال أمزوارو من الحمير على ذلك لم يَسعِ الخراف إلا الدفاع عن نفسها، فانثالت على الحمير نطحا ورفسا. ونودي على الكلاب الجِراء فأثخنت في الخراف. أما الجرذان لما بلغها تمرد الخراف فعلت فعلها وغشيت القصبة. ونصبت الذيبة كمينا للكلاب وهي في طريقها لإطفاء ثورة الجرذان، فأوقعتها في حفرة وأهالت عليها التراب. ثم جعلت الحيواناتُ فصيلةَ بني زروال والمتعاونين معه من جحاش الحمير غَرَضا لها تقذفها بالحجارة أوتنهشها وتعضها في غفلة من جند أزروال أمزوارو من الكلاب. واعتصمت الكباش، وهو لقبها الجديد بعد أن توالت أعمال مقاومتها، بالأكمة، وأخذت تُغِير على مواقع أزروال أمزوارو، ولم يتورّع أزروال أمزوارو في أن يقذف الأكمة والغابة المحيطة بها بالشُّهب ويضرم النار فيها، وأتت النار على الغاب ومن احتمى بداخلها. وألقى أزروال أمزوارو كلابه في الكباش تنكيلا وتعذيبا، وقص أجنحة الدجاج وهدّد الذيبة، فلما لم تُفدِ تعزيراته نفاها وحولها من أمكنتها وأقام سياجا يحمي

به صرح القصبة، ثم عهد للكلاب بحماية قاطرات الحمير وهي ترتاد الطريق المؤدية للتخوم مُحمَّلة ببضائع الأجمة التي كان يُصدِّرها لبلاده. بيد أن تحوطات أزروال أمزوارو لم تُفد وتدابيره لم تزد الحيوانات إلا استماتة، حتى إذا هو حسب أنه قد أطفأ فتيل التمرد فوجئ بأمر جديد.

وذات يوم وأزروال أمزوارو وأصفياؤه يحتفلون بذكرى اليوم الذي حلّوا فيه بأجمة الأحرار انطفأت الأنوار فجأة وغشيت الكباش محلته بالقصبة فهشمت متاعها. وكانت الأرانب قد دخلت المحلة من المدخنة ثم تسربت في دهاليز القصبة وأطفأت جهاز الإنارة.

وضاعف أزروال أمزوارو من أعداد الجنود من جنسه ومن فصيلة الكلاب، واستمر في القتل والتنكيل، وكبير الذيبة أسافو يُلهب بخُطبه العَصْماء جموع الحيوانات حتى أيقن أزروال أمزوارو ألا محيص من أن يفاوضه حقنا لدماء جنوده وحفاظا على مصالحه. هنالك في بلاد بني زروال بعيدا عن الأجمة جرت المفاوضات بين الذيبة وفصيل من ذرية أزروال. كانت المفاوضات شاقة وعسيرة تكاد كل مرة أن تتوقف، واستعصت المفاوضات حول المعصرة. دفع أزروال أمزوارو أنه هو الذي بناها وجهزها وأرسى دعائمها

حتى غدت أهم مورد للأجمة. ودفعت الذيبة أن الحيوانات لم تخض عراكا مريرا لتنال استقلالا مبتورا، فما معنى أن تسترجع الحيوانات الأجمة ويظل أهم مورد فيها بيد أزروال أمزوارو؟ وهددت إن لم يأخذ أزروال أمزوارو بعين الاعتبار مطالب الحيوانات في استقلال شامل فإنها ستستأنف القتال. وتم الاتفاق، بعد هِياط ومِيّاط على ما من شأنه أن يحفظ مصلحة الطرفين.

وعاد أسافو، كبير الذيبة إلى الأجمة غداة المفاوضات واحتشدت الحيوانات لملاقاته مذ هتكت أشعة الشمس ستر الظلام، وظلت تنتظره تحت هجير الشمس المُحرقة حتى إذا برز لها لجّت في الهتاف. هنالك في مرتفع نصبته الحيوانات ليس عليه أمارات الأبّهة والزخرفة اعتلى كبير الذيبة وأرسل جملته الخالدة :

«أنتم الآن طلقاء. أنتم الآن مالكون لأمركم. أنتم الآن سادة أجمة الأحرار».

كان لجملته تلك وقع الصاعقة، وقد حسبت الحيوانات نفسها في حلم أول الأمر وهي تسمع نداء الحرية يتردد في أرجاء أجمة الأحرار وبُنْدها يخفِق في سمائها، ثم أجالت نظرها ورأت محلة أزروال أمزوارو

بالقصبة فارغة، ولم تر كلابا ولا حميرا، إذاك أيقنت أن اليوم الموعود الذي منّت به نفسها قد حلّ وأن جهادها قد أثاب، فأطلقت العنان للتعبير عما يغمرها من فرحة وما يملؤها من حبور. وتوالى هتافها بلا انقطاع، وردّدت بلا نَصَب : «عاشت أجمة الأحرار المستقلة»، ردّدتها إلى أن بُحَّت. واختلط الهتاف بالرقص، ورفع البلبل عقيرته بالغناء، وامتزجت نبرته بالشَّجى وهو يَذْكر أولئك الذين رحلوا فداء للأجمة بالأمل في انبلاج عهد جديد. ثم توالى على منصة الخطابة الحمام إنْزز المعروف بحِلمه ورصانته وَذكَر بنبرة هادئة ولكنها حزينة جهد أولئك الذين ضحّوا واسترخصوا حيواتهم من أجل الأجمة. لقد كانت تضحية الحيوانات سلسلة من حلقات مترابطة لم يتنكب عنها إلا الذين باعوا ضمائرهم من الكلاب والحمير. ثم تكلم الذئب أسافو مهيبا بالحيوانات أن تُطلق على المكان الذي حوى جمعهم ذاك ساحة الفداء أوتافسكا بلسانهم إرعاء لذكرى أولئك الذين ضحّوا من أجلها. وعلا صياح الحيوانات إقرارا لهذا القرار.

ألا ما أشبه اليوم بالبارحة.. فكأنه عهد يوگرثن يُبعث من جديد، فلا استئثار بالرأي ولا استبداد بالحكم، أليس إلى ذلك ما يدعوإليه أسافو :

«ها قد حل اليوم الذي سقته الحيوانات بدمها ورعته بتضحيتها ومعاناتها، فهو عيدها الذي يحق لها به أن تفخر، فلقد استطاعت أن تُثني أعتى قوة وتُجبرها على الجلاء رغم السياط والنار، وأخلصت لنداء الأجمة ونداء أبنائها الأبرار من الذين قضوا حتى أديل لهم من الطغيان.. أقول لكم لا طغيانَ بعد اليوم. أقول لكم لا استغلالَ بعد اليوم، أقول لكم كل ما هو في الأجمة مِلْكٌ لأبنائها. أقول لكم إنكم النجم الذي به تهتدي كافة الحيوانات، تلك التي انعتقت من إسار القهر أوتلك التي تناضل لأجل استعادة حريتها.. أنتم منارها.. أنتم هُداة الحيوانات وأملُها. عاشت أجمة الأحرار».

ورددت الحيوانات النداء، ثم غشيت جنبات الأجمة، رتعت بأكِدال، ثم دخلت القصبة التي بناها أزروال أمزوارو بمقربة من أفراكٍ وقد أضحى قاعا صفصفا، واسترخت تحت ظلال الصنوبر السامقة .. وأرخى الليل سجوفه دون أن تستجيب لإغراء النوم، كأنما تعيشه حلم لذيذ تخشى أن يتبدد..

كان اليوم الذي انعتقت فيه الأجمة من نَيْر بني زروال يوما مشهو دا حقا.

واستمرت آيات التعبير عن الفرحة بأجمة الأحرار. وتوافدت جموع من حيوانات الأجمات المجاورة تُهنّئ أجمةَ الأحرار بنصرها المُؤزَّر، وكان منها ما لا تزال تحت احتلال فصيلة أزروال فتطلب دعم أجمة الأحرار وسندها ونصيحتها، وكان أسافو يظهر بساحة تافسكا وهو محاط بممثلين من السباع والكباش والدجاج والحمام فيلهب الحيوانات بخطبه العَصماء، ويرى وفود حيوانات الأجمات الأخرى قد أقبلت فيزيده ذلك حماسا :

..«إن لنا إخوةً تحت القهر والجبر يواجهو ن عدوانا وطغيانا، ولن نتوانى في تقديم المعونة والدعم لذَكٍّ معاقل الاستغلال وهزم أصحابها شر هزيمة. وإن لإخواننا فيما بذلناه من جهاد لهداية ومنارا، وها نحن أوْلاء ننعم بالحرية جزاء وِفاقا على التضحية التي قدمنا، وسنشق طريقنا من الظلمات إلى النور لنتدارك ما كنا نرزح فيه من فقر وجهل».

فإذا أنهى أسافو خطبته عمّ الصياح والهتاف أرجاء الأجمة.

واتخـذّ أسافو لقبا يُقربه إلى الحيوانات جميعها وهو أسمون، وتعني بـه الرفيق، وكانت تأخذ بـه بلاد من الحيوانات التي تمشي على قدمين ثارت على نظام نبي زروال، لما فيه من استغلال.

ثم إن خطب أسافو أضحت سُنّـة. ودأبت الحيوانات على الاجتماع بساحة تافسكا قبيل المغيب لتستمع إلى أسافو يخاطبها. كانت تصيخ السمع إليه مسحورة ببيانه، يُذكّرها بنضالها البطولي ويرسم آفاقا لها لم تكن لتخطر لها على البال لكي تتبوأ مكانتها بين أقوياء الغاب، بل هي تستطيع أن تتقدم على بني زروال. أفلا تحمل أرضها من الخيرات ما ظهر منها وما بطن ما يربوعلى حاجتها؟ أليس في تقدير الأجمات الأخرى لها حافزا لكي تسير قُدُما؟.. بلى.

ورأت الحيوانات أن الحمام إنْزز لم يعد يحضر خطب أسافو ، وتردد أنه أُقصى من مجلس القيادة، - وهو المجلس الذي يُذكّر بمجلس أگراو في عهد يوگرتن ويضم ممثلين عن كافة الحيوانات، واندرس في عهد إزم - لجراءته وقيل إنه أشار على أسافو بقول الحقيقة للحيوانات حتى لا يركبها الغرور. وتأكد ذلك لما رأت الحيوانات ديكا كليل البصر يُسمّى أذرغال يُؤذّن في ساحة تافسكا :

«إن من الحيوانات ما بقلبه مرض، تلك التي ترتاب في عظمتها وتنزع إلى الشك في مقوماتها. وهذه التي جعلت الشك دَيْدَنَها هي تَبَعٌ لأزروال أمزوارو وأذناب له، دسّها بيننا لتنخر كياننا، وقد اتضح أن الحمام إنزز واحد من هذه، وقد تقرر إقصاؤه من مجلس القيادة بالإجماع».

وانقضى الربيع وأقبل المصيف ومعه شبح المجاعة. وتحوّل أسافو إلى القصبة فألفى مواردها ناضبة، فأزروال أمزوارو لم يرحل إلا وقد استحوذ على خزائنها، ثم نظر إلى المعصرة ورأى أن ليس هناك من الحيوانات ما يعرف تصريفها إلا الحمير.

بيد أن سابقة الحمير في التعاون مع أزروال أمزوارو لم تكن لتجعل الأمور مُيسَّرة. وتطارح أسافو الرأيَ مع أعضاء مجلس قيادة الثورة ورأى ألا مندوحة من استخدام الحمير. واعترض أعضاء مجلس الثورة بشدة واعتبروا الاستعانة بالحمير خيانة لذكرى الأموات ونقضا لما قامت عليه الأجمة مهما كانت الاعتبارات. ثم حَدَث أن أسْرى مبعوث لأزروال أمزوارو إلى الأجمة في جُنح الظلام يُذَكِّر أسافو بمقتضيات الاتفاق الداعي إلى الحفاظ على مصلحة الطرفين فيما يخص المعصرة، والمعروف عن زيت أجمة الأحرار أنه من أجود الزيوت ويستعمله بنو زروال بكثرة. لذلك

فعلى أسافو باعتباره القيّمَ على شؤون الأجمة أن يَشْرَع في استعمال المعصرة وينتدب الحمير لهذه المهمة التي لا يحسنها أحد سواها، وإذا لم يفعل أسافو فإن بني زروال لسوف يعتبرون موقفه نقضا للاتفاق ولن تسلم الأجمة من إجراءات عقابية قد يلجؤون إليها.

وذات صباح أذّن الديك أدرغال فقال :

«لقد كان جهاد الحيوانات البطولي ثمرة لتضافر جهو دها.. وإذا كانت بعض الحمير قد انساقت وراء أطماع آنية فان أغلبها ظل مخلصا للأجمة، وفيا لها، فأمدّ قيادتها في عِزّ الثورة بمعلومات هامة كان لها بالغ الأثر في دكّ صرح العبودية وهزم أزروال أمزوارو وصحبه»..

سمعت الحيوانات ذلك وغلبها الذهو ل.. فالذي تعرفه هو أن الحمير كانت تأتمر بأزروال أمزوارو ، ولم يُذكر في سابق العهو د قطُّ أن الحمير نذرت حياتها للكفاح والتضحية، وأما ما زعمه أدرغال فتشويه للحقيقة وافتئات على تاريخ الأجمة.

وعّمت همهمات الحيوانات وساد الاستنكار واعتزل أسافو فلم يعد يتردد على الساحة وحسبت الحيوانات أن أسافو قد ارعوى وجنح إلى الصواب. والحقيقة أن أسافو كان يُبيّت أمرا. وهو ما أيقنت منه الحيوانات حين أفاقت ذات يوم لتجد الكلاب تملأ أرجاء

الأجمة وتحيط بالمعصرة، وكانت الكلاب قد توارت عن الأنظار منذ التحرير. ومن ذا يجرؤ على هذه الكلاب الشرسة التي روّضها أزروال أمزوارو على الشّدة والبأس؟ ثم أخذت الحمير تتعهد شؤون المعصرة تحت حماية الكلاب، تطحن الزيتون ثم تستخرج منه الزيت وتفرغه في قوارير تحملها على ظهورها لتبيعها خارج الأجمة، فتودع ريع ما درته في القصبة. فلما رأى أسافو حجم عوائد المعصرة والأرباح المستخلصة من بيع زيوتها عهد إلى واحد من قرابته من الذئاب ليكون القيّمَ على القصبة، المشرف على شؤونها.

وما كانت الحيوانات لتسكت وقد رأت هذا الزَّيغ الصُراح عن المحجّة التي كانت رسمتها الأجمة وتعاهدت على السير وَفقها. لذلك أقدم كبش نّطاح، على التمرد فانقض على حمار كان ضالعا في العَمالة مع أزروال أمزوارو. وكان الكبش من المشهو د له بالبلاء الحسن أيام حرب التحرير، ولا تزال كراعه تحمل آثار قذيفة ألقاه بها عليه جند أزروال أمزوارو جعلته أعرج، ولذلك عُرف بعدها بأحيزون، وكان هذا اللقب لديه مصدر فخار واعتزاز حتى ذهب باسمه ولم يعد يُعرف إلا بأحيزون. وعمّت فوضى ذلك اليوم وتعطلت أعمال تسويق الزيت، وحلّ مبعوث من عند بني زروال أمزوارو ليلا يشتكي

من تعطل الأشغال ويهدد بوقف إمداداته من السلع والغذاء ويدعو أسافو إلى أن يمسك بزمام الأمور فيحفظَ الأمن ويُشيعَ السكينة. وأصدر أسافو، عقب ذلك، الأمر إلى الكلاب لتوقع العقاب بأحيزون، فأخذته أخذ عزيز مقتدر واقتادته إلى مكان ناء.

ثم أقيمت إثر ذلك احتفالات تؤرخ للخطاب التاريخي الذي ألقاه أسافو أيام الاحتلال والذي ألهب حماس الحيوانات حسب أدرغال، والمعروف هو أن النضال من أجل التحرير كان مشتركا عدا الكلاب والحمير التي كانت في خدمة أزروال أمزوارو وبعضا من الهررة التي باعت ضميرها وانتحلت بعض الأحاديث ونسبتها ليوگرتن تدعو للاستسلام وكانت تشيد بالتعاون مع بني زروال وانعزلت في زوايا تُزمزم فيها وتلهو؛ فالبلبل كان يُحفّز الهمم والحمام يَشحذ العزائم والسّباع قادت العراك، والكباش خاضت الحرب، والذئاب أجرت المفاوضات، وحتى الجرذان قدّمت خدمات جليلة حين خربّت منشآت أزروال أمزوارو. لقد أخذت الأجمة في الزيغ وأخذ الكذب طريقه إليها بل انتهى إلى تشوية تاريخها.

وخرج أسافو وعن يمينه النمر أغيلاس وصعد الدّكة ليلقي خطابا وكان مُقتضَبا، فَذكَر الأخطار الداخلية والخارجية التي تتربص

بالأجمة ودعا إلى الحيطة والحذر ونادى بتراص الصفوف. ثم علّق قلادة لواحد من الحمير على الجهد الذي قام به في إعادة سير المعصرة، وأخرى لكبير الكلاب لاضطلاعه بضمان الأمن بالأجمة.

وفصَل الموكب محاطا بالكلاب، وسمعت الحيوانات قهقهات بين أسافو وأغيلاس أشرس النمور، تفيد المودة بينهما، إذ كان أغيلاس هو المسؤول على الأمن.

وما أن غادر أسافو حتى انبرى الديك أدرغال في القول :

«إن غيظ أزروال أمزوارو لا يزال قائما وهو لم يرحل عن الأجمة إلا بعد أن دسّ أعوانا له يأتمرون به ويكيدون للأجمة، وهم من الاحتيال والخداع حتى لا يظهرون للعيان. وقد قرر أسمون أسافو حرصا منه على سلامة الأجمة وأمنها، وتقديسا لذكرى الذين قدموا حيواتهم فداء لها أن يضرب على أيدي المتعاونين الخَوَنَة»..

ثم صاح أدرغال : «ألا، فيلْخسأِ الخونة».. ورددت الحيوانات النداء.

ومن هي الخَوَنَة من الحيوانات ؟

قامت جماعة من الكباش بالتعبير عن غضبها لِما اعتبرته زيغا، فهي لم تخض حربا ضروسا ليأتي يوم تُجزى فيه الكلاب والحمير التي كانت من خدام أزروال أمْزوارو، ولا ليُسام الخَسْف واحد من الحيوانات المشهو د له بالتضحية، الكبش أحيزون، ولا أن تَؤُول شؤون القصبة للذيبة وحدها وقد تم إقصاء الحيوانات واحدا تلوالآخر لتتصرف وحدها بمواردها لأغراضها من دون شريك. لذلك تمردت الكباش، وكان أسافو لها بالمرصاد. فقد أرسل لها أغيلاس النمرَ المَهيب فمزّقها شر مُمزّق لتكون عبرة. فلما رأت الحيوانات ما حاق بالكباش ركبها الفَرَقُ وساورها القلقُ وملأتها الحسرة وهي ترى حلمها الذي نذرت له حياتها يتبدد. فلم يبقَ من دعاوى المشاركة في الرأي إلا ذَمامة مضمحلة تُثار في المناسبات التي تؤرخ لأحداث الأجمة ليس غير، وَفقا لما يبثّه أدرغال.. وهو يُردد بلا انقطاع أن أجمة الأحرار نموذج في الإشراك في الرأي وتوزيع مواردها بالنَّصفة. وكانت الحيوانات تعلم زيف ما يدعو له أدرغال وتشويهه للحقيقة وتأويله المغرض للأحداث والأشياء. وما حيلتها

إلا أن تُمنّي نفسها بيوم تعود فيه المياه إلى مجاريها والقوس إلى باريها وتخاتل نفسها في حاضرها الذي لا ترضاه فتتذكر ماضيها المجيد وملحمتها الخالدة فتجد فيهما العزاء.

وذات صيف والحيوانات قائلةٌ تستجم من عناء يوم طويل وتتقي لفْح الهجير فوجئت بالسباع تحيط بالقصبة مُكشّرة مزمجرة يبدومنها العزم ويتطاير منها الشّر. وأصاب الذُّعر الحيوانات وأيقنت أن أمرا حازبا قد طرأ. ثم سمعت الديك أدرغال يُؤذّن تحت إمْرَة شبل فيقول إن أسمون أغيلاس يدعوها إلى الانضباط والهدوء ويأمرها بالتزام مرابضها فلا تبرحها. وأضحت الحيوانات في حيرة من أمرها، ورغبت في أن تعرف ما جرى فخشيت على نفسها من تحذير أغيلاس. وظلت رهينة أماكنها حتى أسفر الصباح.

وأذّن أدرغال فأرْخَت الحيوانات السمع وأصابها الذهول لما تسمع. صاح أدرغال فيما لا يزال منقوشا في لوائح تاريخ الأجمة :

«إن اليوم الثالث من فصل أنبدو لهُوَ يوم أغرّ في تاريخ الأجمة لأنه يؤرخ لاستئناف مسيرة الأجمة الخالدة. لقد أقدم أسمون أغيلاس إيمانا منه بالمسؤولية التاريخية بتصحيح مسيرة الأجمة وقد زاغت عن

سواء السبيل من جرّاء تصرفات أسافو العميل، المؤتمِر بأزروال أمزوارو، المنحاز لسياسيته، المُنفِّذ لأغراضه، الخادم لمصالحه، وقد بلغت الأمور مبلغا من الخطورة لمّا أن انفرد أسافو العميل بالرأي واستأثر بالأمر وأقصى كل غيور حتى لا يُشهد أحدا من ذوي الهمم على خساسته.

إن أسمون أغيلاس وقد أمسك بأعِنّة الأمر، أعاد الأمور إلى نصابها وربط الأجمة بإرثها.. وقد ابتهجت كافة الأجمات التي تربطنا وإياها أواصر النضال المشترك لهذا الأمر وأبت إلا أن تعبر عن ارتياحها لهذا التحول الذي يندرج في مسلسل التاريخ. لقد كان أخشى ما تخشاه وقوعُ أجمتنا الرائدة في براثن أزروال أمزوارو الغاشم، وهو ما كان يعمل أسافو من أجله في الخفاء ويهيئ له في الظل. عاشت أجمة الأحرار».

ولم تستطع الحيوانات أن تكبت فرحتها. فلقد زاغت الأجمة عن سواء السبيل حَقاً. ولقد استبد بشؤونها المتطفلون وأُقصى الغيورون حتى رأت في ما تعيشه بعثا لعهد أزروال أمزوارو البغيض. لذلك أطلقت الحيوانات العنان لفرحتها، فامتزجت أهازيجها بساحة تافسكا تهتف بحياة الأجمة ورفعتها بذكرى شهدائها.

كان عهد الذئاب قد ولّى من أجمة الأحرار وأعقبه عهد السباع وتعقب هؤلاء فلول الذيبة ونزعوها مما كانت عليه من جاه ومال وسلطان. فتفرقت الذئاب شَذَرَ مَذَرَ، واختفى ما بقي منها أوتنكر لِما كان عليه واندس وسط الكباش.. بل منها ما لبس جلود الكباش ولم يعد يجرؤ على العُواء ومال إلى الثُّغاء وقد تعلم لسان الكباش. وكان أغيلاس بادي العزم في كسر شوكة الذئاب وسخّر لذلك الكلاب التي أبدت شراسة غير معهودة في القضاء عليها، ثم إن أغيلاس أطلق أبواق أدرغال تثليبا وقدحا، حتى لم يعد من شغل له سوى أسافو الذي إذا ذُكر ذُكر مقرونا بالعميل أو الخائن، وعلمت الحيوانات أشياء لم تكن لتخطر لها على بال عن ضلوع أسافو في قضايا مشبوهة مع أزروال أمزوارو، ومنها صفقات تُـراعي أول ما تراعي مصلحة أزروال أمزوارو، ومنها استئثاره بعوائد المعصرة ورصدها لنزواته، ومنها قضاؤه على أحيزون قربانا لدواعي المصلحة المشتركة مع أزروال أمزوارو.

وكان يبدوأن أغيلاس وبطانته من السباع مصممة العزم على تصريف الأمور بالشدة والحزم لا يستنكف في إيقاع أشنع العقاب وأقساه لمن خالف الخط الذي يرسمه أغيلاس. فهمت الحيوانات ذلك وهي ترى ما لحق بالذئاب وأدركت ذلك وهي تسمع هَرَجَ أدرغال يَصُمُّ آذانها حول تقدير أغيلاس للمسؤولية التي أناطتها الحيوانات حق إيّاه. ثم تذكرت بطش أغيلاس بالكباش لما كان قيّما على أمن الأجمة تحت سلطان أسافو ، فكيف وقد أصبح المالكَ لدفة الحكم.

وتوارى أغيلاس عن الأنظار ولم يكن يدأب على الظهور كما كان يفعل أسافو، ولا كان يجنح للخطابة. فلم يكن بالخطيب المِصْقع، بل كانت نبرته رتيبة مملة في الحالات القليلة التي خاطب فيها الحيوانات في عهد أسافو أو اليوم الذي أزاحه فيه. وحلت ذكرى شهداء الأجمة ولم يكن بد لأغيلاس أن يخطب في الحيوانات. وحضر بساحة تافسكا محاطا بعدد غفير من الكلاب وأخرى انبثت في جنبات الأجمة.

كانت الحيوانات تتطلع إلى خطاب أغيلاس بخُبث خفي وهي تعلم عَيّه. وقد طال مديح أدرغال في استهلال مراسم الحفل حتى

عِيل صبر الحيوانات. واعتلى أغيلاس دكّة الخطابة بعد لأي. أخذ ورقة أسلمها إليه أدرغال ثم طفق يتلوها في جهد جهيد. وكان تهجُّؤه المنكَر يختلط بزئيره ويقطعه بين حين وحين صياح أدرغال، ثم يتعالى صدى ما كان يدعو له أدرغال وسط جموع حيوانات لا يُدرى كيف انسلت إلى الساحة تردد ما يدعو له أدرغال من صيحات، إنْ ثُغاء أو نباحا أونهيقا. واستمر هذا التمرين الصعب إلى أن زأر أغيلاس «عاشت أجمة الأحرار» إيذانا بنهاية أول خطاب له على الملأ، فتنفس بعدها الصُّعَداء وشوهد جمعُ السباع وهي تثني عليه.

أما ما ورد في الخطاب فلم تذكر منه الحيوانات إلا شذرات بفضل ما كرره أدرغال مرارا بعد الخطبة، ومنه دعوة أغيلاس الحيوانات للعمل الدؤوب لتدارك وقت ثمين مضى في ترّهات أسافو ونزواته. وكان واضحا أن أغيلاس يريد أن يَصْرف الأجمة وجهة مخالفة لتلك التي رسمها أسافو الذي لم يفتأ يردد أن نضال الأجمة ليس إلا حلْقة من حلقات نضال الحيوانات جميعها، وأن الثورة لابد وأن تستمر.

أحكم أغيلاس سيطرته وبثَّ في الأجمة الكلاب تنشر الرعب وتَثني كل من سوّلت له نفسه أمرا. وكان منها تلك التي اعتادت الحيوانات أن تراها في واضحة النهار مُكشِّرة أنيابها على أهُبة الانقضاض. ثم انضاف إليها صنف يعمل في الخفاء، يخرج إذا جنَّ الليلُ فيصيخ السمع إلى ما تردده الحيوانات ويحصي عليها حركاتها وسكناتها، فإذا انقشع الصبح تفرق وقد حمل زاده من الأخبار يُدوّنها، ثم يكتب تقارير يبعث بها إلى أغيلاس، ولم يكن هذا الصنف من الكلاب يتحرى الدقة فيما كان ينقل، بل كان يحكم بالهوى وبما يوافق مزاج أغيلاس، وما تفرضه الظروف.

واستمرت الحمير في الاضطلاع بإدارة المعصرة. ولم يظهر أن مسؤولياتها نقصت أوأن علاقاتها مع الخارج تضاءلت، بل على النقيض. فقد تضاعف نفوذها وأصبحت القيّمة على القصبة، وتتولى تصريف عوائد الأجمة ونفقاتها.

واستمر أدرغال في دعايته للأجمة ينشر مناقبها ويبث في الأمصار

عظمتها. ثم أوحى إلى أغيلاس أن تُلَقّن الناشئةُ من الحيوانات ذلك ليظل ولاؤها للسباع ولأغيلاس طبْعا وِجبِلّة. كان أدرغال يُرى وهو يشيد بعظمة الأجمة وتضحية السباع وعبقرية أغيلاس في المناسبات التي تؤرخ للأحداث الخطيرة من تاريخ الأجمة، ويتولى في الأيام الأخرى أن ينقشها في نفوس الحيوانات، فتجتمع كل صباح وتردد ما يدعوه إليها أدرغال بصوت تهتز له جنبات الأجمة :

- «عاشت أجمة الأحرار

- «الولاء الدائم للسباع

- دام أسمون أغيلاس العظيم حصنا مهيبا للأجمة، وصخرة تتكسر عليها مؤامرات الأعداء».

وما لبث هذا الشعار أن تغير ترتيبه على مر الأيام، فإذا الناشئة تُشيد بأغيلاس أولا فالسباع ثانية والأجمة أخيرا. وقرر أغيلاس أن تُنقش تلك العبارة في ساحة تافسكا. وذهب فريق من الحمير ليفاوض بني زروال في صنع لوحة ذهبية تحمل شعار أجمة الأحرار الخالد وفخرها الماجد أغيلاس. ولم تطّلع الحيوانات قط على المبلغ الذي اقتضاه بنو زروال على هذا العمل الذي أذاع أدرغال في الحيوانات بأنه أمر عظيم لأنه يُبقي ذاكرة الأجمة حية ويصونها من

التلف ويحفظها من النسيان. عَجَبٌ أمر أدرغال، رددت الحيوانات مع نفسها، فهو يجد التبرير لكل شيء والتفسير لكل أمر. يكفى أن يأمره أغيلاس بشيء ليتفتق ذهنه الخصب على مرامي لا تخطر ببال.

أما شؤون معاش الحيوانات فلم يظهر عليها تحسن، بل إن حجم العمل تضاعف لتغطية نفقات جديدة. فلقد أضحى للأجمة جيش عرمرم من الحمير بدعوى تصريف أمور الأجمة، ومثله جيش من الكلاب. ولم يعد أدرغال يكتفي بما نزر في تغطية نفقاته. فمنها نفقات خُطَبه التي ينشرها أعوانه في الآفاق - إذ أضحى له أعوان. واستعان بفريق من القردة لتُعوض صوت البلابل الذي خَفَتَ، وحكمة الحمائم التي توارت، والطيور لا تبدع إلا في ظل الحرية. ولذلك اعتلت في الدَّوح ترقب من عل بعيدا عن دوامة الأحداث. أخذت القردة تغني وتفكر بإيعاز من أدرغال، ولم تكن تعدو في حقيقة الأمر إلاّ أن تُقلد ما كان عليه بنو زروال من دون تمثل لمرامي ما يأخذ به بنوأزروال. وكانت القردة تقتفي طرائق بني زروال حذو النعل بالنعل. ولم تكن لُتطرب أحدا أو ترسم السبيل لأحد، بيد أنها كانت تُكلِّف الأجمة من مواردها عُسْرا. وليس للحيوانات إلا أن ترضى بحالها، وكيف لها أن تُعبر عن استنكارها؟ فلأغيلاس حوْلٌ وقوة، وكلابه بالمرصاد لمن سولت له نفسه أمرا، ثم إن الحيوانات لم

تعد تأمن بعضها البعض. فلقد استطاعت كلاب أغيلاس أن تبُثَّ في صدور الحيوانات الرَّيبة من كل واحد حتى ولو كان قريبا. ولقد أخذت الحيوانات فيما بينها تَحِنُّ إلى عهد أسافو. فعلى الأقل كانت تستطيع أن تجهر بما يخالجها. وبعض الشر أهْوَنُ من بعض.

كانت تقارير الكلاب تفيد قلة المؤونة ووَكْس الحال ونضوب المورد وَتبلُّغ الحيوانات في الغالب. وهي تُطْلع أغيلاس على همهمات غضب استقتها من مصادرها الخاصة بأساليبها الخاصة، وتُحذّر من إمكانية استغلال الذئاب لحال التذمر الذي تعرفه حيوانات الأجمة. وأفادت الكلاب في تقرير سري للغاية أن الذئاب لم يُقضَ عليها عن آخرها بل إنّ منها من لبس الصوف واندس وسط الخراف وتعلم الثغاء حتى أضحى تمييزها عسيرا ويُخشى أن تُعلِّمَ الذئابُ الكباشَ العُواء. وكان ذلك مصدر قلق كبير لأغيلاس. ورأى أن لا مندوحة من تقريب الكباش وذلك بأن تُقتطع مرعى ترعى فيه وتمرع وتدير شؤونها بلا تدخل الحمير وتحت رقابة بعيدة من الكلاب. وستفقد إذاك الذِيَبة حليفا محتملا يُضرب له ألف حساب لعدده ولاستماتته. والمعروف عن الكباش أنها لم تكن تخشى المخاطر وأنها تركب الأهوال هازئة بها ابتغاء مرضاة يوگرتن.

وأحكم أغيلاس قبضته على الأجمة ودانت له رَهَباً وَرغَباً.

ظل حال الحيوانات على ما هو عليه من ضيق ذات اليد وعسر الحال وقلة المورد والتضييق على الحريات.

ثم إن أغيلاس جمع كبار السباع في اجتماع هام حضره كبير الكلاب وأدرغـال لتطارح موضوع بناء مطحنـة. وكانت تلك فكرة للذئاب وجدتها الكلاب وهي تُنقِّب في وثائقها. فعرضت اكتشافها على أغيلاس، ولم تكن أنذاك من الأولويات في بداية حكمه، فقد كان ذهنه منصرفا أنذاك إلى تعقب الذئاب واستئصال شأفتها. فلما أن خمدت أمور الذئاب وانشغلت الكباش بالمرعى المقتطع رأى أن يُنجز ما كانت خططت له الذئاب. ووجد في الأمر سبيلا لترسيخ سلطتـه وتعزيز نفوذه وأمـر في الكلاب ألا يذيع أن أسافو هو صاحب الفكرة.

وكانت الأجمـة تضطر إلى طحن حبوبها في بلاد بني أزروال، فيقتضي منها بنو زروال مقابلا باهظا لذلك، فضلا عن التأخير الذي يحدث لاستلام الطحين ونخله وهو ما تحتاج الحيوانات في تغذيتها. ولقد يحدث أن يساوم بنو زروال الأجمـة قبل أن يُسَلِّموا البضاعة، مقتضين تنازلا ما. ومعناه أن استقلالية الأجمـة كانت مثلومة مادامت هي في حاجة إلى بني أزروال في غذائها. ولقد قدّر أغيلاس أن بناء

المطحنة لن يُغطّيَ حاجات الأجمة ويُدعّمَ استقلالها فحسب، حسبما ما هيأته الحمير من تقارير، بل سَيدِرُّ عليها ربحا ضافيا ببيعها ما فضُل عن حاجتها للأجمات الأخرى، وسيزيد من نفوذها الخارجي ومن صيتها. واستحسنت السباع رأي أغيلاس وأقرّته عليه، بيد أن ما كان أغيلاس يبتغيه هو تحميلها نصيبا من مسؤولية تبعات القرار، لذلك أفسح لكبير الكلاب في الكلام. وكان كبير الكلاب مُقِلاّ في النباح إلا فيما لزم، وإذا دُفع للكلام لم يتحول عمّا يُحضره في أوراقه يتلوه في صوت رتيب. وقد عدّد مزايا المشروع ثم عرض لكيفية الانجاز. وتبادلت السباع النظر وهي تسمع كبير الكلاب يشير بالاستعانة بخبرة بني زروال. وماذا ستقول الحيوانات إن هي رأت ذرية بني زروال تحل بساحتها بعد الذي بلت من بطشها، وكيف سيكون رد الحيوانات وشعارات الأجمة وخُطَبُها تُـذَكّر بعهد أزروال البغيض؟ وهو المصطلح المستعمل للتدليل على فترة حُكمه. ثم ماذا لوتلقت الذئاب النبأ ؟ إذاك سُتظهر براءتها من هذه التُّهَم التي أُلصقت بها من العمالـة لبني زروال، وسُتعَرّض شرعية السباع للطعن والنقد.

وكأن كبير الكـلاب علم بما دار بخَلَـد السباع فـأورد في

تقريره طمأنة لها فأخبرها أن الذئاب قد دُحرت دحْـرا وأن الكباش مشغولة بمرعاها.

وقطع أغيلاس رأي كل مرتاب فقال ألا مندوحة من بني زروال وهم على ما هم عليه من خبرة ومعرفة لبناء المعصرة، وقرر أن يوفد جمعا يضم واحدا من السباع وكبير الكلاب وحمارا من الحمير ليفاوضها في إنجاز المشروع. وأضاف أنه يتعين، والحالة هذه، أن تتم الأمور في سرية تامة، ثم تحول إلى أدرغال آمرا إياه أن يخفف من لهجة العداء ضد بني أزروال.

وذات صباح سمعت الحيوانات أدرغال وهو يتلوبيانا بساحة تافسكا، أصاخت السمع إليه وهوَ يُغرّد :

«إن الخلاف بين أجمة الأحرار وبني زروال يعود إلى مخلفات الماضي.. وليس ببعيد أن تتسم علاقتنا بهم بالتعاون والاحترام إن هم تفهموا ما تقوم عليه أجمة الأحرار من استقلال ونبذ للاستغلال وتعلق بالكرامة. وأجمة الأحرار مستعدة لطي صفحة الماضي استقبالا لعهد جديد يسوده التعاون البنّاء والاحترام المتبادل».

وتوالت حملة أدرغال المُهادِنة، واستقبلتها الحيوانات بالذهول.

وأي احترام مع من غمس يده في الدماء وقتل ونكّل! ثم أعقب الذهول اللامبالاة..

وعاد وفد المفاوضين من بلاد أزروال، واجتمع مع أغيلاس على انفراد وأطلعه على جَلِيَّة ما جرى بينهم وبين بني زروال. وتبين أن بني أزروال لا يقنعون ببناء المطحنة بل يريدون المشاركة في تدبير شؤونها واستخلاص أرباحها. رأى أغيلاس أن الأمور إن هي سارت وفق ما يعرض بنو زروال فإنها سُتفرغ المشروع من محتواه وما يروم تحقيقه من أرباح واستقلال اقتصادي.

وانعقد اجتماع طارئ لتدارس ما استجد ضم الخاصة من السباع وكبير الكلاب. وذهبت الآراء طرائق قِـددا بين التي تشير بنبذ المشروع كلية، والتي تنصح بإعادة الكَرَّة مع بني زروال عسى أن تلين قناتهم، وأغيلاس مُرخ أذنيه لا ينبس. وانفض الاجتماع دون حسم للأمر.

ثم إن أغيلاس استبقى كبير الكلاب وقـد غادرت السباع. وقـال أغيلاس وقد خلا مكان الاجتماع إنه مُصرٌّ على بناء المشروع مهما كلّفه من أمر. وأرهف كبير الكلاب السمع وذيلـه خلفه،

وكان مما قاله أغيلاس إنه مصر على بناء المطحنة حتى ولو اضُطر إلى اللجوء إلى أزگاغ، ابن عم أزروال وخصمه اللدود، وهو حتما سيقبل بالشروط التي ترتضيها الأجمة نكاية ببني زروال.

وردّ كبير الكلاب إلى أن هذه الخطوة تنطوي على مخاطر سُتدخل الأجمة في دوامة الصراع بين بني زروال وبني زگاغ. وكانت الأنباء قد شاعت عن الصراع المحموم بينهم وتفرق العالم شِيَعاً بين أنصار هؤلاء وحلفاء أولئك.

وسدر أغيلاس في تأملاته وردد مع نفسه أن الحيوان في غمرة الصراع لابد أن يختار، وأن كل اختيار هو مَسرّةٌ لقبيل، مَغْضَبَة لآخر. ثم وكأنه يُكلم نفسه زأر : لابد مما ليس منه بد.

في إحدى الاحتفالات التي تـؤرخ لمعركـة تحرير الأجمـة، اجتمعت الحيوانات كدأبها في ساحة تافسكا.. كانت زُمْـرة أدرغال من القردة تبعث صياحها المعتاد، وُتذَكِّر بشهداء الأجمـة الأمجاد، وعبقرية أغيلاس الفذ. وكانت تقوم بحركاتها البهلوانية، والكلاب محيطة بجنبات الساحة، ينبعث من نظرها الشّرُ المستطير وتثير من حولها الرهبة. ثم حلّ أغيلاس وسط جماعة من السباع يصحبه - أعجِبْ بـه من أمر! - حيوان من فصيلة الحيوانات التي تمشي على قدمين. أمعنت الحيوانات النظر وقلبت بينها البصر، أليس هو عدوها اللـدود الذي أذاقها صنوف القهر وألوان العذاب؟ ألم يَنهب خيرات الأجمـة وأبقاها على ما هي عليه من عَوَز وفقر؟ نظرت الحيوانات إلى هذا الحيوان الذي لا يختلف كثيرا عن فصيلة بني أزروال. كانت قامته أقصر، ووجهه مشربا بحمرة، ولباسه خشّنا أزرق أدكن.

بيد أن الديك أدرغـال لم يُمهـل الحيوانات فانبرى يـؤذّن كأنما لُيذهب عن الحيوانات هو اجسها :

«تتشرف أجمة الأحرار بأن تستضيف واحدا من الحيوانات الأبرار من الذين يمشون على قدمين، أولئك الذين دكّوا معاقل الاستغلال وأعادوا الأمل إلى معذبي الأرض، وجعلوا وكْدَهم بناء صرح المساواة والعدل بين كافة الحيوانات حتى تسطعَ فيها شمس المساواة ويزول عنها إصْر الاستعباد.

إن أجمة الأحرار لُتكبر نضال أشياع بني زكاغ، هؤلاء الذين رسموا سبيلا غير سبيل أزروال الآشر، وتُشيد بكفاحهم، وتعتبره حلْقة من كفاح الحيوانات المقهو رة حيث تكون..»

وزأر أغيلاس زئيرا اهتزت له الحيوانات بياناً على الخطاب وعلامة على قول ثقيل يريد أن يلقيه على الحيوانات، فتنحنح ثم استرسل في الزئير :

«إنني أُشهد من عل ساحة تافسكا ذكرى الشهداء في هذا اليوم الأغر وأُعلن أن المعصرة مِلك للأجمة ولحيواناتها تنفرد بعوائدها ولا تشرك في ذلك أحدا. وبناء عليه، أعلن أن الاتفاق بيننا وبني زروال على الاستغلال المشترك لاغ وغير مقبول، وأن المعصرة هي منذ هذه اللحظة مِلك لحيوانات أجمة الأحرار دون سواها. المجد والخلود لشهدائنا الأبرار. عاشت أجمة الأحرار».

حتى كبير الكلاب الذي يعلم كل جليلة ودقيقة، ويعلم ما يهيئه أغيلاس من قرارات أصابه الذهول. فلقد كان يُقدّر أن إيلاء بناء المطحنة لأزگاغ خطر محسوب. أما أن يَنْقَض أغيلاس عقد استغلال المعصرة مع بني زروال فهو التهور بعينه. وهل سيقبل بنو زروال بالأمر الواقع ؟ لن يقبل بنو زروال، وهو ما سُيعرِّض الأجمة لغائلته ويُنذر بما لا تُحمد عواقبه.

وبدد ثغاء الكباش ونهيق الحمير وصياح كل فصيل هواجس كبير الكلاب، كأنما مس الحيوانات الجنون. وتوالى الهتاف بحياة أغيلاس العظيم.

كان الزهو يملأ أغيلاس وهو يرى الحيوانات تدين له بالولاء وتُعلن تعلقها به عن طواعية.. وما يضيره عداء بني زروال وحيوانات الأجمة تهتف بحياته لأول مرة بعفوية وصدق ؟

وأرسل نظرة ملؤها البهجة والحبور إلى أزگاغ الذي كان ينظر إلى جموع الحيوانات وقد انفلتت عواطفها من عقالها. واستدار أزگاغ نحوأغيلاس يهنئه على هذا النصر المؤزر وتعلق الحيوانات به.

لم تدم فرحة تأميم المعصرة طويلا. فقد أجمع بنو زروال أمرهم وأغاروا على الأجمة واحتلوا منابع المياه بتالا الذي تستقي منه الحيوانات، وهددوا بالإنزال بأسايس، وتمركزت جنودهم على مرمى حجر من المعصرة.

وانبرى أدرغال يُلهب حماس الحيوانات للذود عن حياض الأجمة ودفْع خطر المعتدي، وسارت الحيوانات نحو التخوم طوعا تستثيرها الغيرة ويحركها الحماس. ووقعت كتيبة من الكباش تحت وابل من النار ثم ظلت مطوقة ببسيط تاجورا تحت رحمة بنادق بني زروال، يتهددها الموت نارا أو جوعا..

وبلغت أخبار كتيبة الكباش مجلس السباع، وتدارست الأمر واستمعت إلى ما ورد في تقرير كبير الكلاب من استحالة دفع عدوان بني زروال لما هم عليه من قوة وبأس وعزم، وَدَفعَ إلى أن الأسلم هو مجادلتهم بالتي هي أحسن في شأن المعصرة. وامتدَّ

الاجتماع لساعات طوال بين أخذ ورد.. وتـلا أدرغال بيانا مقتضبا يقول فيه إن حيوانات الأجمـة الأبرار على وشك تطهير الأجمـة من براثن العدوان الغاشم، وقد كبّدت جنودُها العدوَّ خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، وأعطت كتيبة من الكباش أروع الأمثلة في البطولة والشجاعـة، وإن النصر لقريب.

ورددت الحيوانات الأنباء التي ترِدُها من أدرغـال وهي على غير علم بحقيقة ما يجرى في ساحة القتال، فتضاعفت حَميتُها.

أما ما كان ينمولجلس السباع من أخبار فكان يفيد اندحار حيوانات الأجمـة ومحاصرتها من قِبل جنود بني أزروال الذين طوّقوا المواقع الحسّاسة من الأجمـة، بعد أن احتلوا منابع المياه.

وفي خطوة غير مرتقبة، أصدر أزگاغ بيانا يُحَذّر فيه من مغبّة استمرار الاعتداء على الأجمـة ويطلب فيه من بني زروال سحب قواتهم فورا وإلا اندلعت بينهما حرب لا تُبقي ولا تذر.

وبدا أن حال الأجمـة أضحى موضعا للصراع بين بني زروال وبني زگاغ، وأن الأمور أضحت تتجاوز الأجمـة وقادتها.

وترقّب أغيلاس وسباعه تطور الأحداث بين بني أزگاغ وبني زروال بلهفة وخوف، فما كان له أن يؤثّر هو وجنوده في مجرى الأحداث.

وأما أدرغال فقد أطلق عقيرته يمتدح أزگاغ هذا الذي انتصب نصيرا للمظلومين ونكالا على الظالمين، وتوالى تجنّيه على بنى زروال الذين لا يزالون يحفظون الموجدة لأجمة الأحرار، ولم يستسيغوا بعدُ أن ينهض أبناؤها أحرارا في بلادهم مالكين لشؤونهم.

وحدث أن لنسحب جنود بني زروال تحت وطأة تهديد أزگاغ من تالا وتاجورا ومن باقي الأراضي المحتلة. وما أن طار الخبر حتى انطلقت أبواق أدرغال تزُفُّ بُشرى النصر المؤزر الذي حققته الأجمة بفضل قيادة أغيلاس وحنكته وشجاعته. ثم انبرى يُعدّد مناقبه التي لا تُحصى وهو القائد الفذّ الذي يُذكّر بيوگرثن العظيم في الماضي البعيد. ألم يَهزم الدخلاءَ مثل يوگرثن؟ إن نصر أغيلاس قبس من يوگرثن ونفحة منه.

وانطلقت الحيوانات تهتف في يوم الجلاء بحياة أغيلاس

العظيم. وتوافدت أقطاب أجمات الحيوانات الأخرى تهنئها على نصرها المبين.

منذ ذلك اليوم أضحى أغيلاس الزعيم الذي طهّر الأجمة ودحر العدو، وكان في أذهان الحيوانات قبل ذلك التاريخ السبع الذي خلع الذئب أسافو وخَلَفَهُ ليس إلاَّ.

أياما معدودات بعد الجلاء احتفلت الأجمة ببداية أعمال بناء المطحنة، واجتمعت حشود الحيوانات في كدية تاوريرت وجلس أزگاغ قريبا من أغيلاس وقد أضحى بعد حادث الاعتداء مقربا ظهيرا. وتولّى قومه بناء المطحنة.

وتردد أن بعض الحمير رأت أن شروط بناء المطحنة ليست أقل إجحافا مما طلبه بنو زروال فضلا عن أن نفقات البناء أكبر وجودة الآلات أقل، إلا أن الكلاب زجرتها، ومتى كان للحمير أن تُبدي رأيها، فليس لها أن تجادل وما عليها إلا أن تأتمر بما تؤمر..

وذهبت بعثة من الحمير لتتلقى تدريبا خاصا ببلاد أزگاغ حول تصريف شؤون المطحنة، ودأبت الحيوانات أن ترى أزگاغ وشيعته يجوبون أرض الأجمة يشرفون على أعمال المطحنة، ويُعلّمون الحمير ويلازمون الكلاب. وقد تكفلت فئة منهم بتنظيم شؤون الكلاب وتسيير أمورها وذلك بألا يقتصر عملها على الزجر بل أن تتعقب أحوال الحيوانات وإحصاء جليلها ودقيقها من أجل الردع مِنْ قبل

أن تصدر أفعالاً، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان كل حيوان كلبا لأخيه الحيوان يتعقب أمره ويخبر عما يريبه. لذلك أشار بنو زگاغ على أغيلاس بإنشاء جهاز ضخم تختزن فيه أسرار الحيوانات. وأكبّ بنو زگاغ على تنظيم حملات أدرغال الدعائية تنظيما عصريا لتواكب توجه الأجمة الجديد وتكون في مستوى ما يبتغيه أغيلاس العظيم قائد أجمة الأحرار العظمى، لقبها الجديد!

وخلال هذه الفترة التي عرفت توثيق الصلة بين أجمة الأحرار وبني زگاغ نشب عراك بين بني عمومة من الحيوانات التي تمشي على قدمين، في بلاد غير نائية حول تركة ورثوها عن جدهم الأكبر وتنازعوا في شأنها. وكان أحدهم يُدعى إسْفل لرهافة سمعه، وقيل لامتثاله لنصائح أبيه وقد رأى في المنام أنه يذبحه، واستجاب إسْفل لما كان يريده والده منه من تضحية، ثم ما لبثت السماء أن فدته بذِبْح عظيم ، وأما الثاني فيُدعى إطْسا لأن أمه لما أن كانت حاملا به أصابها طَوْرٌ أغرقها ضحكا، فأسمت وليدها بعد إذ وضعته إطْسا تيمنا.

وكان إطْسا قد رحل وتاه في مناكب الأرض لنكبة أصابته، فتولى أبناء إسْفل الأرض المتوات وتعهدوها فأحيوها وأنبتوا فيها من كل زوج بهيج، حتى إذا عاد نفر من بني إطسا استردوا الأرض عُنوة.

وقد ذهب النزاع أشدّه، وجنّد كل واحد طاقاته وجمع حوله أنصاره، ووالى بنو زروال آل إطسا لأنه أمضى بين ظهرانيهم ردحا طويلا وتمثل طرائقهم حتى أضحى واحدا منهم في واقع الأمر، والتمس آل إسفل السند من بني زگاغ.

وكانت الأجمة قد ناصرت منذ استقلالها آل إسفل، ورأت في ما أقدم عليه آل إطسا افتئاتا على حقوق من أحيى الأرض. وفي غمرة هذا الصراع قرر آل إسفل ألا يبيعوا زيتهم لبني زروال لأنه كان منحازا لغريمهم بشكل سافر مفضوح. فارتفعت أسعار الزيت، وأبى آل إسفل أن يخصموا الإنتاج، فحذا أغيلاس حذوهم، وتوثقت الصلة بين آل إسفل وأجمة الأحرار. وتعاهدوا أن يحرروا الأرض المغتصبة من رِبقة آل إطسا الظالمين. ثم آلوا أن ينشروا دعوة العدل في الأرجاء ويصدحوا بها في الأصقاع. كل ذلك بمباركة بني زگاغ الذين كانوا يرون بعين الرضا كل عمل لا يُرضي غريمهم ابن زروال وذويه.

وهكذا تضاعفت عوائد الأجمة من الزيت بين عشية وضحاها. وكانت تلك الحقبةُ عصرَ الأجمة الذهبي. فلقد خف

حجم الإتاوات بفضل عوائد المعصرة وعرفت الحيوانات نوعا من اليُسر أنساها عيشها الضّنَك الذي بلت من قبل. وتوالت أعمال بناء المطحنة، وطَبَق صِيت الأجمة الآفاق وأضحت محَجًّا للحيوانات من كل فج، ومَوْئلا لمن يروم الحرية والإنعتاق. وتبنى أغيلاس خطاب سابقيه من الذئاب الداعي إلى نشر حركة التحرير خارج الأجمة ودعم الحيوانات المضطهدة. وتوالت خطب أدرغال العصماء تبارك إنجازات الأجمة، مما جعلها قِبلة لكل الحيوانات. وذاع صيت أغيلاس وأصبح مهابا في أجمته، مشهو دا له بالتقدير خارجها.

ثم أصابت آيات البَطْر انسباعَ والكلابَ وبعَض الحمير، فاقتنت ما جدّ وطاب، وخلدت للراحة ومالت إلى المتع، واسُتبدلت الحمير بالبغال في بعض المهام. وتجرّأت بعض الحمائم أن تغادر أعشاشها وتصدح برسالتها، فلم تَجِدْ مُصْغيا، ولمست من الكلاب إعراضا، وفعلت البلابل فعلها، ولكن حيوانات الأجمة ألِفَت القردة وطرائقها، وأخذت تُفضّلها على الأصيل من الغناء. وتبين الحمام أن الزيف إذا استحكم في حيوان لم يزل حتى إن الحيوان لَيُفضِّل إذاك الزائف على الصحيح، والحيوانات لا تنسلخ عما ألفته بسهو لة، ولابد من جهد وتربية لتتمثل الصحيح.

ثم حدث شيء عُجاب، فقد خرجت الذئاب من مخابئها وشوهدت وهي تمشي في جنبات الأجمة دون أن يَلحقها أذى. وتردّد أن أزگاغ هو الذي التمس الشفاعة لها عند أغيلاس فأعلنت ولاءها له، وكانت الذئاب قد استمسكت بنهج أزگاغ لا ترضى عنه بديلا، وأضحت أكبر الدعاة إليه، وأشدّها تمسكا به، تزايد في شأنه، فكانت تدعو إلى اقتفاء آثاره بلا مواربة، وترى أن تركب الأجمة قاطرة أشياع أزگاغ وتختصر الطريق المفضية للتقدم وتنبذ كل ما يؤودها من دعوة إلى الماضي والتعلق بأهدابه. ولم تكن لتجرؤ على انتقاد أغيلاس لِما هو عليه من نفوذ وجاه وسلطان. وأما الكباش فقد تُركت لشأنها ترعى سائمة فيما اقتطع لها، راضية بحالها، لا تُستأمر أو تُشرك في أمر.

كل ذلك تحت عيني ممثل أزگاغ. فقد كان أغيلاس يستمع لنصائحه ويستشيره فيما يعنُّ له من أمر بل ويوكل إليه شؤون حراسته. وقد ذهبت الأجمة مذهب أزگاغ في كل أوجه الحياة حتى لكأنها نموذج من بلاد بني أزگاغ.

وكان أن زار أغيلاس بلاد أزگاغ ليرى بأم عينيه ما حققه محج التواقين للعدل والمساواة. وقد شيعته الحيوانات بالهتاف،

وقفل الموكب في اتجاه بلاد أزگاغ وسط التهليل، وأفاض أدرغال في مرامي زيارة أغيلاس العظيم إلى بلاد أزگاغ من رغبة في توثيق الصلة بين قطبين هما منار الحيوانات، قطب تأتم به الحيوانات التي تمشي على قدمين، وقطب يهدي السبيل لتلك التي تسير على أربع، وفي صلتهما إنقاذ العالم وصلاحه. وترددت الأنباء عن الحفاوة التي خُصَّ بها أغيلاس في بلاد أزگاغ. ودأب أدرغال يردد الأنباء ويولد المعاني الكامنة وراءها، وتبين أن أغيلاس سيطيل مقامه لبضعة أيام في بلاد أزگاغ ليستجم فيها هو الذي نذر حياته للأجمة.

وطالت زيارة أغيلاس لبلاد أزگاغ.

لما أن عاد أغيلاس العظيم من سفره المُظفَّر توارى عن الأنظار، ثم انتظرت الحيوانات مناسبة عيد التحرير عساه يظهر، فلم تره في مراسم الاحتفال، وكانت أكبرَ مناسبة تفخر بها الأجمة.. فتنامت ظنون الحيوانات وذهبت تأويلاتها كل مذهب، وتردد أنه قد عاد إلى بلاد أزگاغ، وقيل إنه أسرى إلى وِجهة غير معلومة. فلما عظُمت الإشاعات، رأت الكلاب أن يخرج أغيلاس إلى الملأ من الحيوانات ليقطع دابر التأويلات. أوحت بذلك إلى أغيلاس فيما تبعثه من تقارير درءا لما قد يصدر عن تلك التأويلات من أخطار.

وتقرر أن يخرج أغيلاس العظيم في اليوم الذي يؤرخ لميلاده، واجتمعت الحيوانات بأسايس لتتملى بطلعة قائدها الفذ، ولكنها لم تر أغيلاس الذي عهدته وإنما رأت نمرا منهو كا عليه أمارات الإعياء والتعب، أقام هنيهة في المرتفع المخصص له ثم انسحب إلى عرينه بالقصبة مصحوبا بخاصته وبشخص من ذرية بني أزگاغ يرتدي وَزرة بيضاء لم تتحول عيناه عن أغيلاس.

ما أن انسحب أغيلاس حتى سمعت الحيوانات أدرغال ينادي بعظمة يوم ميلاد أغيلاس الأغرّ الذي لا يمكن أن ينفصل عن تاريخ الأجمة المجيد. وأضاف أدرغال أن أغيلاس العظيم خَلَدَ لبعض الراحة من جراء ما لاقى من تعب في سهره الدؤوب على راحة الأجمة وسلامتها، وها هو ذا يستأنف مسيرته، كدأبه دوما، من أجل رفعة الأجمة وسؤددها.

أما الذئاب فقد أيقنت أن أغيلاس مصاب بمرض عُضال، وإلاَّ فلِم يغيب عن الأنظار؟ وتأكد لها ذلك وهي ترى ما هو عليه من ضمور وتعاين الرقابة المشددة عليه من قِبل طبيب من بني زگاغ.

واستقت الذئاب مما سرّبه إليها بنو زگاغ أنفسهم أنهم علموا بمرضه لما أن حلّ برحابهم، فأشاروا عليه بالعلاج، ولكن أغيلاس أبى إلا أن يعود إلى الأجمة، ثم برّح به الداء فَوْر عودته فتوارى عن الأنظار.

ورأت الذئاب أنّ الفرصة سانحة إنْ هي عرفت كيف تستغل الظرف دون عجلة ولكن في إصرار ليتحقق لها مُرامها في انتزاع زمام الأمور. وردّدت فيما بينها أن مسيرة أغيلاس وما كان يذهب إليه من الاستئثار بالرأي قد دجّن السباع، وأن ما كان منها ذا رأي ثاقب فقد

أُقصي أوتعقبته الكلاب وألصقت به تهمة جرّدته من كل مصداقية. قدّرت الذئاب أنها لن تِعدم نصيرا من أزگاغ وهي أكبر الدعاة إلى مذهبه. أما الكباش فمن السهل استمالتها بالدعوة إلى الإشراك في شؤون الأجمة على قدم المساواة بالاحتكام إلى خيار الحيوانات، فهي دوما تجري وراء شعارات فضفاضة تربطها بماض لا تدري الذئاب أين تستقيه وتُقرنها بعبقرية البعبعة التي ما فرطت من شيء.

وقلّبت الذئاب الأمر على وجوهه فأغراها الظرف، ولكن مخاطر المغامرة دفعتها إلى التريث وإلى مزيد من التدَبُّر، فالكلاب تُحكم السيطرة على الأجمة ولن تترك الفرصة سانحة للذيبة، وإن هي اطّلعت على ما تُدبر الذئاب من أمر فلن تتورع في إيقاع أشّنع العقوبات بها، لذلك كان على الذيبة أن تتصرف في حذر شديد، وتَصرف وجهتها إلى الكباش لتستميلها بالدعوة إلى المبادئ السامية التي تؤمن بها، وهي تعلم طرائقها لما أن اندست وسطها أيام حملة المطاردة التي تعرضت لها فتنكرت بلبس جلدها. أما الحمائم فمن غير المجدي السعي لاستمالتها، فهي تفكر كثيرا في الأمر قبل أن تركبه، ثم هي أقلّية.

بدأت معركة الخلافة خفية مستترة.

واستمر تصريف أمور الأجمة باسم أغيلاس العظيم، حتى إن السّامع ليَحْسَب أن أغيلاس لا يزال يتمتع بموفور الصحة والعافية، وأنه يتابع عن كثب ما جلّ ودق من أمور الأجمة. كان أدرغال يردد بياناته التي تُفيد أن اجتماعا انعقد تحت إمْرَة أغيلاس تقرّر فيه رفعُ حجم إنتاج المعصرة، أو أن وفدا من حيوانات أجمة نائية تخوض عراكا مريرا لفك نَيْر الاستعباد حلّ برحاب الأجمة وزار أغيلاس في القصبة والتمس دعمه ونصيحته، أو أن أغيلاس تفقد أعمال مشروع ما..

تسمع الحيوانات ذلك ولا ترى شيئا. أما الذئاب فقد ترسّخ لديها الاعتقاد أن أغيلاس لن يُبِلَّ من مرضه وأن ساعته أزِفت، وأن فرصتها أهلّت. ورأت أفواجا من الأطباء تتقاطر في جُنح الظلام من بلاد أزگاغ ومن بني زروال أيضا.

وعادت الكلاب سيرتها الأولى في الرقابة الشرسة على الحيوانات. وكان مما عمدت إليه في هذا الظرف العصيب تسريب إشاعات متضاربة لم تكن الحيوانات لتعلم أن الكلاب هي صاحبتُها. ومنها أن سبب غياب أغيلاس هو مرض كان قد أقعده فعلا إلا أن

الأطباء استأصلوا الداء وعن قريب يستأنف أغيلاس مسؤولياته، أو أن مرض أغيلاس المزعوم إن هو إلا مؤامرة دبّرها بنو زروال للنيل من الأجمة في شخص سبعها الغِطريف، وأنهم يُعدون العُدّة ليجهزوا على الأجمة تارة أخرى. وكانت الكلاب تعرف بحكم المهنة أن ما يُستحب القيام به في الظروف العصيبة التي تنذر بتهلهل السّدى الذي يَشُدّ عناصر الأجمة هو تحريك خطر خارجي..

وعاشت الأجمة في مرج من القيل والقال، وجنحت بعض الحيوانات إلى الخيال فضاربت حول داء أغيلاس.

وكلّم أدرغال الجموع في بيانات متوالية عن حياة أغيلاس العظيم وإنجازاته التي لا تُحصى حتى إنه لا يمكن فصل تاريخ الأجمة الحديث عن أغيلاس. ويوما أخذ يتحدث عن السباع ومخالبها البيضاء على الأجمة لما أنْ أمسكت بأعِنّة الأجمة في ظرف عصيب، فحمت الثغور ودفعت المعتدي وبنت أركان أجمة مهيبة الجانب، هي مثال يُحتذى ومنارة في العالمين.

ورأت الذئاب فيما ذهب إليه أدرغال من تدرج في الترتيب بالحديث عن السباع أولا فأغيلاس ثانيا، خلافا لما كان يفعل من قبل في بلاغه الأخير إشارة، كما لو أنه يهيئ الحيوانات لأمر خطير.

قضي أغيلاس نحْبَه. سمعت الحيوانات الديك أدرغال يتلو بيانا ينعى فيه أغيلاس العظيم، يقطع صوتَـه النحيبُ ويمتزج بالنّشيج. وأصاب الذهول الحيوانات للمصاب الجلل.. ما كانت تقدر أن المرض الذي أصاب أغيلاس سيخترم حياته.. لقد عاشت في غمرة من الإشاعات وما كانت لتحسب أن خاتمة المرض القضاءُ المحتوم.

بدت الأجمـة كئيبة، وكيف للأجمة أن تنهض من مُصابها وقد رحل عنها أغيلاس الذي تماهى مع الأجمـة حتى إنه ليستعصي التمييز بينهما. فهو الذي أرسى الأمن ورسّخ النظام ووقف طودا شامخا ضد المعتدي وأقام دعائم أجمة عصرية، ورفع راية الأجمـة عاليا في الخافقَيْن. لقد أصبحت الأجمـة يتيمة وقد رحل عنها من كان بمثابة أبيها الذي كان يحميها ويشملها بعطفه.

أما أدرغال فلم يُسكته الحدث. فقد تكلم عن فداحة المصاب، وتكلم عن رسالة أغيلاس الخالدة التي على الحيوانات أن ترعاها

حق رعايتها فتؤمنَّ استقلال الأجمة ورفعتها، ودعا الحيوانات إلى السير وراء السباع المؤتمنة على إرث أغيلاس..

وكانت السباع قبل أن تُعلن نبأ وفاة أغيلاس قد أجمعت أمرها وتدارست أمر الخلافة وقررت أن تبُتَّ فيه على سبيل العجلة لتُفوّت الفرصة على الطامعين والمتربصين داخل الأجمة وخارجها، فهيأت الحيوانات لذلك لما أن أمرت أدرغال أن يُقرن عظمة أغيلاس بدور السباع الطلائعي. واتخذت السبع أمْلاَّل خَلَفا لأغيلاس العظيم.

وأقيمت مراسم الجنازة، وأتت الوفود من كافة الأجمات وحضر كبير بلاد أزگاغ، ووفد من آل إسْفل وممثل عن بني زروال.

وسارت جموع الحيوانات وراء موكب الجنازة الرهيب. وحملت الكلاب نعش أغيلاس العظيم وقد أحاطت بها السباع والقردةُ تعزف ألحانا شجية. ثم ما لبث أن انفرط عقد النظام فطام موج الحيوانات على الموكب وعلا النهيق والثغاء وسط النحيب، وعمت الفوضى ووجدت الكلاب عنتا شديدا لتصد الحيوانات عن نعش أغيلاس، ولم تبلغ به ساحة تافسكا إلا بعد جهد جهيد.

هناك في مقبرة شهداء الأجمة على ربوة عالية أودعت الحيوانات فقيدها أغيلاس لتستقبل صفحة جديدة من تاريخها وقد ذهب عنها ما كان بمثابة أبيها.

لم تختر السباع الأسد أمْلاّل، وسموه كذلك لبياض في ناصيته، جزافا. فمنذ مرض أغيلاس وصراعٌ خفيٌ يمور بين السباع، أوأجنحتها بتعبير الذئاب. فلما أثقل المرض على أغيلاس وأخرسه، بان الصراع، حتى إذا اخترمه الموت أيقنت السّباع أنّ عليها تُبتَّ في الأمر فلا تعلم بخلافها الحيوانات عامة والذئاب خاصة، لما في ذيوع الخلاف من أثر على هيبتها.

واستقر الاختيار على أمْلاّل لا لنفوذه، فلا شيء كان يميزه، فلم يكن ذا دهاء ولا سطوة، بل لأنـه المؤهـل لإتباع خط السباع العام دون لَجـاج. كان من السباع ما هي أقـدر منه ولكنها لن تلبث أن تستأثـر بالأمـر وتَصْبغ سياسة الأجمـة بصبغتها كالأسد أُوسادّن. لذلك وقع الاختيار على أمْلاّل ونادت السباع على أدرغال ليقرأ بيانه عن مخالب السباع البيضاء على الأجمـة وفضلها عليها. وكانت تلك إشارةٌ أن خليفـة أغيلاس هي السباع جميعها وإن ولّت واحدا منها.

ورأت الحيوانات أملال غداة دفن أغيلاس يسير إلى أسايس ويعتلي منبر الخطابة ويؤدي قسم الإخلاص لشهداء الأجمة وميراث أغيلاس العظيم، ثم سمعته وهو يتهجى خطابا مدّه إليه أدرغال. وكان مما ورد فيه أن الأجمة ستظل وفية لميراث أغيلاس العظيم، مؤتمنة على رسالته، وستسير سيره في تثبيت استقلال الأجمة ورفاهها وأن أملال يتعهد وقد آل إليه عبء المسؤولية الثقيلة ألاّ يألوَ جهدا في الذّود عن حياض الأجمة والعمل على رفعتها.

وانفضّ جمْع الحيوانات وفي نفوسها لوْعة. فلم تر في وليّ أمرها خطيباً مصْقعا ولا حيوانا ذا هيبة. وتساءلت عن سبب اختيار أملال، ألأنه أكبر السباع سنّا كما شاع بين الحيوانات؟ ألعلاقة خاصة كانت تربطه بأغيلاس لا تعلمها الحيوانات، والمعروف عن أغيلاس أنه كان لا يخص أحدا من السباع بثقة، وأنه كان يعتمد في تصريف شؤون الأجمة على الكلاب. ألأن أملال هو الذي خلف أغيلاس في تسيير أمور الأجمة لما أن سافر إلى بلاد أزكاغ ؟

عجبت الذئاب لتولي أملال أمور الأجمة. فهو ليس بالسائس المحنّك، همه قنص الغزال والاستمتاع بملذات الحياة. ولم يُعرف عنه قط ميله للعمل الدؤوب. فقد كان نؤوم الضُّحى، أم أن اختياره

للخلافة مردُّه أنـه يمثل القاسم المشترك الأدنى الذي يمكن أن تجتمع حوله السباع، حسب هذه التعابير التي تكلف بها الذئاب والتي تستقيها من لسان بني زروال. بيد أن الذئاب كانت ترى في تولي أمْلاَّل أمور الأجمـة فرصةً سانحة، فهو ليس بالحيوان الذي سيصمد للنوازل والمحن، ثم هو يُحب الحياة وملذاتها، ويكلف باقتناص الغزلان، وهو إلى ذلك زيرٌ للّبوءات، وله خليلات منها، وهو ليس على شاكلة أغيلاس، هذا الذي كان شديدا على نفسه وعلى الأجمـة. لسوف يلين أمْلاَّل للذئاب طوعا أو قسرا، آجلا أم عاجلا، كذلك رددت الذئاب في لقاءاتها.

وكان أكبرُ تحد يواجهه أملال هو معارضةَ أوسادّن السافرة له. كان أوسادّن يشعر بخيبة وقد أزيح عن تولي أمور الأجمـة وهو على ما هو عليه من استنارة فكر وقوة شخصية. ولم يغفر لمن ضحى به من الحيوانات من أجل سبع رخوهمة تعقب اللبوءات الحسنوات وقنص الغزال. وقد أسَرَّها أوسادن في نفسه وتماسك عقب الخلافة حفْظا لهيبة السباع، إلا أنه آل أن ينسف سلطة أملال حتى توقن السباع ألا بديل لها عنه.

ولم يكن أمْلاَّل صاحبَ ذهن ثاقب، إلا أنه كان ذا فطرة

وبصيرة، أو كان صاحب منطق سليم بتعبير الذئاب. كان يعلم أن الأمور لن تكون مُيسّرة بينه وبين أوسادّن، وأن هذا لن يكُفَّ في جمع الغاضبة من السباع يؤلبها عليه. كان أملال يدرك ذلك، وكان يدرك أيضا أن الذئاب ستنهض من مخابئها وستشحذ حيلها، إلا أن خطرها على المدى القصير، على الأقل، هو أدنى من خطر أوسادن. فأوسادّن صاحب قوة، وله أتباع من السباع، وإن تأتّى له أن يضم أغلبيتها فإن مقاليد الأجمة ستنقاد له. ولم يكن من محيد والحالة هذه إلا أن يجاريَ أملال السباعَ ويتَّبعَ خطها الذي ترسمه، وألاَّ يدخل في صراع معها في حال من الأحوال، وبذلك يستطيع أن يعزل أوسادّن.

أما الذيبة فهي حتما ستُحرّك بقية الحيوانات، ومن اللازم سحب البساط من تحت قوائمها. ولم يكن أملال يعدم السند من الكلاب التي من أوْكَد واجباتها إشاعة الأمن واستتبابه، أومن الحمير التي همها تصريف موارد الأجمة وإنفاقها وإدارة المعصرة والاستنكاف عن الخوض في الصراعات. هؤلاء الموالون الطبيعيون لمن يلي سُدَّة الأجمة أيا كان.

وأما بقية الحيوانات فقد كانت في غفْلة مما يجري من صراع وحسابات، ولكنَّ حدسها كان ينبئها أن شيئا ما يعتمل بداخل

الأجمة، وأن عهدا جديدا يلوح، ووضعا جديدا ينتسج وخيوطا تتشابك وأخرى تَنْحَلّ، لم تعد تشعر بثقل رقابة أغيلاس وبطشه، فقد كان كثيرٌ من تعظيمها له مصدره الرَّهبة. ولم تكن لَتَرْهب أسدا يتهجى في خطبه أو يقضي ساعات طوالاً في اللهو .

ثم أطلقت الحيوانات العِنان لقرائحها وأخذت تتندر بأمْلاَّل، فأشاعت عنه أنه نادى على أدرغال وهو غضبانَ حانقا عقب عيد من أعياد الأجمة فلما مَثُل أدرغال بين قوائمه نهره مزمجرا : لم كتبت لي خطابا لساعتين وقد طلبت منك خطابا لساعة، فردَّ أدرغَال بخبث: «أُومِا أملال، لقد تلوتَ الخطاب مرتين». وكان أمْلاَّل قد استبدل لقب أسمون، أو الرفيق بلقب أُومَا، أو الأخ، وأخذت حيوانات الأجمة تنادي به بعضها البعض. ومرة وقد ملك ناصيةَ اللغة أراد أن يرتجل خطابا فقال : «لقد كنا على شفا حفرة.. ولقد قمنا بعدها بخطوة جبارة إلى الأمام». ورددت الحيوانات أنه مرة خطب بأسايس متندرا على بني زروال الذين بلغوا القمر، فقال : «لئن طار بنو زروال إلى القمر، فنحن سنصعد إلى الشمس».. ثم توقف لحظة ليرى وقع قوله، فلما رأى ذهول الحيوانات عقَّب : «إنكم لترتابون في الأمر، لقد قدرنا الأمر تقديرا، وعزمنا أن نفعل ذلك ليلا..» وهلم جرا مما تحكيه الحيوانات همسا..

هل كانت الحيوانات تُبدع من تلقاء نفسها، أم أنها كانت عن غير وعي تردد ما كانت الكلاب تدُسُّه لتجسَّ نبض الحيوانات ولتستغلَّ هذه الطرائف ضد أمثلاَّل؟

والمؤكد أن الحيوانات استشعرت بصيصا من الحرية وأخذت تتحلل رويدا رويدا من ثقل هيبة أغيلاس التي كانت تؤودها وتصدّها عن الحركة.

سار أملاّل السيرة التي أرادته السباعُ أن ينهجها، تجتمع وتتداول، ثم تقرر وتنادي على أدرغال فيُثبتُ ما تقرر في صحيفة فيكتبُه، ثم يَستلم أملاّل الصحيفة يقرؤها مرات ومرات حتى لا يزلّ وهو يتلوها على الملأ. ولقد تحلل أدرغال من الخوف والفَرَق اللذين كان يثيرهما فيه أغيلاس لكن نزوعه للمال ورغبته في الحفاظ على امتيازاته لم تؤثر على ولائه للسباع وائتماره بأملال.

وكان النقاش يحتدم أحايين كثيرة بين السباع ويتبنى أوسادن آراء مناهضة لتلك التي يدفع بها أملاّل بدعوى أنها تَزيغ عن نهج أغيلاس. وما نهج أغيلاس؟ هنا تتضارب الآراء وتتعارض، فلم يكن لأغيلاس نهج لا يحيد عنه. وبونٌ شاسع بين ما كان يأتي من أمر في أولويات أمره وأواخره. وكم من شيء أقدم عليه ثم عدل عنه، ولقد يتغير فكره وَفق تطور الأشياء، وكان كثيرا مما أقدم عليه أغيلاس فرضته الظروف، ولم يكن ناتجا عن اختيار أورويّة. لذلك كله كان تأويل فكر أغيلاس أمرا عسيرا لأنه يفتح الباب على مصراعيه لكل التأويلات.

ثم نما إلى أملاّل مِن كبير الكلاب أن أوسادن يديم المكوث عند واحد من بني زگاغ المقيمين بالأجمة، والذي كان نظّم شؤون الكلاب التي تشتغل ليلا وتجمع أخبار الحيوانات جميعها. وعلمت الكلاب أن السبع أوسادّن يبثه شكاته ويؤاخذ السباع التي خذلته وفضّلت عليه سبعا رخوا، أكبر همه القنص، ومبلغ علمه الاستمتاع بملذات الحياة، ولم يبلُ البلاء الحسن في الدفاع عن حياض الأجمة لما أن كانت ترزح تحت نيْر بني زروال، وليس ببعيد أن يكون أحد عملائه الذين دسّهم. وكان أوسادن يبتغي إثارة حفيظة أزگاغ لِما يعلمه من تنافس بين بني جلدته وبني زروال.

كيف استقت الكلاب هذا النبأ؟ هل استطاعت أن تخترق سياج أزگاغ؟ إذن فهي على مكانة من الكفاءة لا نظير لها! أم أن ممثل بني أزگاغ مَن أنبأ كبير الكلاب لحاجة في نفسه ؟..

وطلب ممثل بني زگاغ مقابلة أملال. وأفسح له هذه في المجلس وهشّ له وبشّ. وتكلم ممثل بني زگاغ عن الأواصر المتينة بين أجمة الأحرار وبلاده، وأن بلاده لتتطلع لتعميق هذه العلاقات وترسيخها، وهي على استعداد لتقديم المعونة والدعم على جميع الأصعدة كما هبّت لنصرتها في الماضي. وقد طمْأن أملالُ ممثلَّ بني زگاغ أنَّ أسباب المودة

لن تنفصم وعُرى التعاون ستتعزز وأن بني جِلدته سيظلون المؤتمنين على المطحنة. وانصرف ممثل بني زكاغ مبتهجا وقد أيقن أن خطته قد أتت أُكلها حين أثار مخاوف أملال من أوسادّن لِما أبلغ به كبير الكلاب.

وحدث أنه في اليوم الذي يؤرخ لذكرى رحيل أغيلاس كان على أملاّل أن يُلقي خطابا، ولم يكن هناك شأن خطير يعلن عنه. فقد هيأت الحمير تقريرا مُسْهبا عمّا أنجزته الأجمة لسنة كاملة وما تعتزم القيام به في السنوات المقبلة أسوة بما يقوم به بنو زكاغ في تصريف أمورهم. وما كان لأملال إلا أن يتلوالتقرير على الملأ. واجتمعت الحيوانات بأسايس لتستمع لخطاب أملال هذا الممل الذي تزيده تلاوته مللا على ملل.. وكان من السباع ما استرخت، ومنها ما أخذته سِنَةٌ من نوم، وهي قُعود بالمرتفع. وأما الحيوانات فقد كانت ذاهلة عما كان أمْلاّل يردد إلا بعض الذيبة التي كانت تبذل جهدا لتتبع ما ورد في التقرير لركاكته ولطريقة تلاوة أمْلاّل، حتى إذا أشرف أمْلاّل على خاتمة الخطاب وقد أخذ يتلوالجمل المعتادة عن ذكرى شهداء الأجمة والوفاء لذكراهم والإخلاص لنهج أغيلاس العظيم، ألقى قولا ارتاعت له الحيوانات أيقظ من السباع تلك التي استسلمت للنوم. ورددت الكلاب النظر فيما بينها مندهشة، فلم يَرِدْ ما تلاه أملال عن خلع أوسادّن من مجلس السباع في الخطاب الذي راجعته. لقد خرج

أملال عن الجادّة، ولّما ساءلته السباع عقب الخطاب عن هذا القرار الذي أعلنه على الملأ بدون مشورة السباع، دعا كبيرَ الكلاب وقال له: « قل لها ما تعلم».

فلما أخبرها كبير الكلاب عن شكاة أوسادّن لممثل بين زكّاغ وانتقاده للسباع، أطرقت السباع واجمة، ثم انفضت عن القصبة خائبة.

واستدار أملال نحوكبير الكلاب فقال له :

«هيئ لي نزهة قنص، فقد أتى علي حين من الدهر لم أنعم براحة البال».

وسار أملال للصيد قرير العين منشرح الصدر.

ورأت الذئاب في تنحية أوسادّن انتصارا لها، فهو خطر محتمل انجلى.

وعلمت الحيوانات أشياء مريعة في صحائف كانت تضعها الكلاب ليلا في ساحة أسايس عن علاقات أوسادّن مع بني زروال، وثروته الضخمة، وممتلكاته في بلاد أزروال، هو الذي كان من المتحمسين لمذهب بني زكاع وأشد المنتقدين لبني زروال. ثم ما لبث أن انزاح أوسادّن من ذاكرة الحيوانات.

أخذت الذئاب تخرج من مخابئها وتَجْهر بأمرها، تخرج إلى أسايس فتعوي في الحيوانات حول ما تراه من شؤون الأجمة، فتقول إن السبيل الذي تنهجه السباع ليس مما يقود إلى الرفاه، فهذه تستأثر بالرأي وتنفرد بموارد الأجمة، وهي مِلْك مشاع للحيوانات جميعها.. ثم تشفع خطابها بالقول إن الحيوانات جميعها استرخصت حيواتها من أجل الأجمة، وليس من العدل أن يستأثر بالأمر فصيل دون الفصائل الأخرى.. وأحيانا أخرى تصب خطابها على انتقاد أملاّل، فهو لا يدري إلى أين يقود سفينة الأجمة، يُبحر بغير وجهة، يتقاذفه صراع السباع، وهو بهذا يُهدر صيت الأجمة ورفعتها وقد أدّته الحيوانات بدمها وأرواحها.

كانت أعداد الحيوانات التي تتحلق حول الذئاب لتستمع لخطاباتها صغيرة أول الأمر. كان منها بعض الأرانب والجرذان التي يدفعها حب الاطلاع، تقترب بحذر، وتلقي البصر يمنة ويُسرة خشية أن تضبطها الكلاب، وتصيخ السمع في أناة، ثم ما لبث خطاب

الذيبة أن أخذ ينفذُ إلى قلوب الحيوانات، ثم ما لبثت أعداد التي تتحلق حولها يزداد، فانضاف إليها بعض الكباش. وأيقنت الكلاب أن لابد من أن تتبع حلقات الذئاب وتعقب أتباعها من الحيوانات، فنصَبَت محلا لها على كثيب يطل على أسايس لترصد حركاتها، ثم إنها لما شاهدت أعداد أتباعها يتضاعف، رأت ألا تكتفي برصد حركاتها وأتباعها بل وأن تنفذ إلى حلقاتها.

ويوما نادت الكلاب على الأرنب إزِيلْ، وكان وسيما، فلما بلغته الدعوة مـلأه الفرَق وأيقن أن شرا من الأمر سيَحيق بـه.. فذهب إلى محلة الكلاب وهو يصطك من الهول، ثم أتـاه كلب لا عهْد له بـه كلمه كلاما حسنا. سأله عن أحوالـه وشؤونه حتى اطمأن الأرنب إزيل وذهب عنه الخوف، إذاك قال له الكلب :

- إنك حيوان مُقرَّبٌ لدى السباع، وهي تخصك بالعطف، وتعلم ما يعتري أحوالك من ضائقة وتعرف حبك لمتع الدنيا، وهي مستعدة أن تسبغ عليك مما قد تحتاجه لإشباع رغباتك، وتجزل لك العطاء..

وتوقف الكلب لحظة، كأنما ليترك الأرنب إزيل الوقت لكي يستوعب ما قاله له الكلب ثم أردف :

- ونحن نعلم حبك للأجمة وغيرتك عليها وأنت لن تقبل أن يَمسَّها سوء.. أليس كذلك؟

وتلعثم الأرنب قائلا :

- بلى.

وقد عاوده الوَجَل، فقد استغرب أن الكلب يعرف بعاداته في الاستمتاع بالملذات، ثم إن الكلب نبح :

- ما يطلب منك يسير، وهو من أجل الأجمة التي نَدين لها بكل شيء.

وتوقف الكلب مرة أخرى ثم استأنف نباحه :

- هو أن تُديم المكوث في حلقات الذئاب كما كنت تفعل من قبل وتُطلعني بكل ما تعوي به، صغيرا أو كبيرا..

إذن كانت الكلاب تعلم بملازمته حلقات الذئاب.. ثم ألقى عليه الكلب قولة اضطرب لها الأرنب :

- سلّم على الأرنبة تُودا..

وأبْلس الأرنب وأراد أن يقول شيئا ولكن لسانه اعْتُقل، فلم

تكن الأرنبة تودا إلا خليلته التي كان يختلي بها في ألمـو، بعيدا عن نظر الحيوانات وارتياب أهله، وها هو الكلب يُفهمه أن الكلاب على علم بحياته الخاصة. ثم باغته الكلب بأن ألقى إليه بضِغْث جَزَر نابحا :

- لـن تخشى دَرَكـا أو يَمَّسك سوء.. خـذ هذه تعينك على عوادي الدهـر.

وابتدر أحد الكلاب الجُرذَ أغْرضا في خلاء، وقـال له إن الكلاب تعرف فعلته لما أن نقب حيطان المعصرة وأن جزاء من أتلف موارد الأجمـة العقاب الأقصى، إلا أن الكلاب رأفـة به لن تلحق به أذى إن هو قدّم خدمة صغيرة للأجمـة بأن يُطلع الكلاب بما يتردد في حلاقات الذئاب.

وهكذا تسرّبت الكلاب إلى حلقات الذئاب.

كان أملال رهينةَ السباع لا يُقدّم أو يؤخر إلا بمشورتها، وكانت ذكرى أغيلاس تثقله وتلقي بظلال كثيفة على حركته حتى إنها لتحجبه.. وكان أملال قد جارى السباع، واحتمل ثقل ذكرى أغيلاس، إلا أنه مع مرور الزمن تبين أنه لن يستطيع أن يدير دفة الأجمة إلا إذا تخلص من هذين العِبأين.. ثم انتهى إلى علمه أن الذئاب تُحرّك بقية الحيوانات وتدعوها للتمرد.

ولم يكن في صالح أملال أن يدخل في صراع مكشوف مع الأطراف كلها، فهو صنيعة السباع، ولا مُعَدّى له عنها، ومن الضروري ترضيتها. وقد ذهب خطر أوسادّن الذي ارتحل إلى بلد أزروال، هو الذي كان ينتقد نهج بني زورال أشد الانتقاد. وهو لم يكن يرضى بما دون الرئاسة، وها هو قد رحل، أما السباع الأخرى فلا تطمع إلا في متاع الدنيا، ولقد تعبت من الخشونة التي فرضها عليها أغيلاس، وتتطلع إلى الاستمتاع بما لذّ وطاب من أمور الحياة، فإذا نالت ما تبتغي من متاع نفرت إليه وتركت أمْلاَّل وشؤون الأجمة.

وقد نادى أمْلاَّل على كبير الحمير وأمره أن يُجزل العطاء للسباع من موارد المعصرة ليأمن شرّها..

وأما الذئاب فشأن آخر، فهو لا يقدر أن يُثخن فيها كما فعل سالفه وإلا تعرض لمآخذ جمّة، ومنها مآخذ أزكاغ، ولا سبيل إلى استمالتها فهي لا ترضى بديلا عن دفّة الحكم، وهي تعتبر نفسها الأحق بالأمر، وهي تُردد أن حكم السباع شؤم وحصيلته وبال. لذلك وجب انتزاع السبق منها في محاولتها استمالة الكباش والدفع بها إلى العزلة. وقد أقدم أملال على خطوة جريئة عجبت لها الذئاب عجبا كبيرا، يبتغي منها استرضاء الكباش برد الاعتبار لبعض منها مما نكّلت بها الذئاب. حدث ذلك في حفل حاشد. وشوهد أملال وهو يتهجى خطابا يعدد فيه مناقب الكباش ويَذْكُر تضحيتها واستماتتها، منذ أعلوش الذي صحب يوگرثن ووقف عن كثب على مناقبه واستلهمها، فإيزمير، إلى أحيزون الذي شاءت حسابات أسافو الخسيسة أن تضحي به. ثم أعقب ذلك قرار أملال التاريخي بتبني البعبعة لسانا للأجمة حتى لا تقع فريسة للمسخ والاستلاب. حدث ذلك في يوم مشهو د تذكره الأجمة في سجلاتها بفترة البعبعة. وقد ثغا واحد من الكباش بساحة تافسكا على دكّة الخطابة بلسان بعبعي مبين فأشاد بعهد أملال الزاهر الذي أحق الحق وأزهق الباطل. واعتبر أن مكرمة أملال التي بزّت

كل المكرمات هي إعلانه البعبعة لسانا للأجمة. وأي شيء يمكن أن يربط الأجمة وماضيها التليد غيرَ البعبعة وقد عمّ لسان أزروال في النجد والسهل وهدد بمسخ الأجمة ومَحْقِ تراثها.

وإثر ذلك ولأيام متتاليات أفاض الديك أدرغال في فضائل الثورة الثقافية التي أقرت البعبعة، وقال إن عزم أزروال المُبَيَّت كان أن يقضي على البعبعة ويَفْصِل الأجمة عن ذاكرتها فتظل رهينة له تابعة له، وجارته الذئاب إبان عهدها البائد في مخططها الرهيب الذي اعتمد لسان بني زروال.

كان أدرغال يبديء ويعيد في خطابه حول فضائل البعبعة بلسان بني زروال.

بيد أن هذا القرار التاريخي، حسب تعبير أدرغال، ما كان ليجد تطبيقه في الواقع، فقد ظل لسان أزروال هو الساري، به يخطب أملال وهو المعتمد بين الحمير والكلاب في مرافق التسيير والتدبير. واقتصر تعليم البعبعة على الكباش في مرعاها المقتطع. ولم تكن غالبية الكباش تتقن البعبعة إلا قِلّة قليلة التمست من أملال أن يأتي لها بمن يعلمها لسانها من الأمصار البعيدة ذات الباع الطويل في البعبعة وقواعدها وأسرارها.

وتوافدت كباش من الأمصار النائية تُعلّم كباش أجمة الأحرار البعبعة، واسُتقبلت بالترحاب. وأبدت كباش الأمصار حماسا في تعليم البعبعة لحيوانات الأجمة ولكباشها خاصة لما لمسته فيها من استعداد وحرص شديد.

وكانت الكباش الوافدة مضطهدةً في مصرها، ولذلك اهتبلت ما أتيح لها من فرصة لتصدعَ بأمرها وتنشر كلمتها التي كبتها القهر في بلادها وأخرسها القمع. وكانت ترى أن لسان البعبعة ظاهر ولوكره المرتابون، وكانت ترى أن لِحمة الكباش فيما بينها أقوى آصرة من آصرة الأجمة، وأن الكباش لم تبلُ في تاريخها سوى القهر من قِبل الذئاب والسباع وقد آن الأوان أن تملك زمامها. لم تجهر كباش الأمصار بذلك أول الأمر واكتفت بتعليم أصول البعبعة، ولكنها لم تذهل عن غايتها ومراميها، فهي لم تكن تريد من كباش أجمة الأحرار أن تتعلم لسان البعبعة فقط، بل أن تمسك بزمام أمور الأجمة يوما ما، لتنتقم للكباش أينما كانت مما لاقته عبر تاريخها الطويل من اضطهاد وفِتن.

نامت الكلاب ملء جفونها وقد أزاحت خطر الذئاب بعد إذ أقرت الأجمة البعبعة لسانا لها وشِرْعة.

أخطأت الذئاب في التقدير، فلم يكن أملاّل دُمية، وليس يعدم حسا سياسيا، وينبغي أن يُضرب له الحساب.

لقد انتقل الصراع القائم ما بين السباع والذئاب إلى ما بين الذئاب والكباش، ولم توفر الأولى الثانية فأنحت عليها باللائمة ورمتها بكل شائنة واعتبرتها صنيعة للسباع وتابعة لها، أما دعواها فجوفاء تقتصر على البعبعة وعلى قيم فضفاضة ما لها من سلطان..

ولقد وجدت الكباش فيما أتيح لها من استخدام البعبعة متنفسا. وذهبت الجادة منها إلى التنقيب في تراث البعبعة وإحيائه، ووجدت فيه غنى وألفت فيه حافزا.. نفضت الغبار عن حِكم أعلوش، جدّها الأكبر، الذي لا تزال كبار الكباش تحفظها وتتواترها جيلا عن جيل، فاتخذته نهجا في البلاغة، وسيرته رمزا للشهادة. ولم تنس الكباش ما تعرض له إزيمر وقد قتلته السباع شر قتلة، ولا نسيت ما تعرّض له الكبش أحيزون على حوافر الذئاب.. ثم استوحت ملاحم أجدادها

في الصدع بالحق مهما كلفها الأمر، لا تخشى في الحق لومة لائم.. ألا ما أغناه من تراث، وأَخْلِقْ به أن يُعَلَّم إلى ناشئة الكباش، بل لكل الحيوانات! ودأبت الكباش تعلمه لناشئتها وتنقشه في صدورها وتضفي عليه هالة من التضخيم والتقديس، وتنسج قصصا عن سيرتي كبشيها العظيمين أعلّوش وإيزمر، ولم يكن ذلك ليغضب الكلاب : كلا! فقد رضيت الكباش بما أُعترف لها من إعلان البعبعة لسانا للأجمة، وأخذت تتعهد هذا التراث في تُؤدة، واستنكفت عن الخوض في أمور الأجمـة إلا صراعَها مع الذيبة.

وتغيرت أشياء كثيرة بالأجمـة عمّا كان مألوفا في عهد أغيلاس، ذلك أن السباع نالت نصيبا وافرا من موارد الأجمـة، فزينت عرائنها وأجرت حياتها على ما غرار ما كان يفعل أزروال أمزوارو، تنطق بلسانه وتقتدي به في شؤونها وتستورد سلعه وتبعث أشبالها إلى بلاد بني زروال هناك. وما كانت الحيوانات لتعلم بذلك، فقد ظلت السباع تُبدي ولاءها لبني زگاغ، وتقول بالتضحية ونكران الذات للسّير قُدُما بالأجمـة.

كان ذلك ثمنَ إبعادها عن إدارة أمور الأجمـة، أن تنال مما تشتهي من متاع وتستنكف عن الخوض في سياسة الأجمـة. فإذا

سوّلت لها نفسها غير ذلك أنبأتها الكلاب في رِفق أنه يحسن بها أن ترتدع، فالويل لها إن علمت الحيوانات بامتيازاتها وهي تدّعي الزهد وتدعو للمساواة. فهمت السباع ذلك وذهبت أخرى إلى تنمية جِرايتها بالاتجار مع بني زروال خلسة، واستخدمت لهذا الغرض بعض الدجاج التي كانت لا تخرج من أوكارها إلا متنكرة.

ولم تكن الحيوانات لتنازع السباع حظوتَها وأرزاقُها تأتيها رَغَداً بفضل عوائد زيت المعصرة إلا الذئاب التي تحمل أحقادا دفينة ضد السباع. والحال أن وضع الحيوانات في عهد أملاّل كان أحسنَ مما كان عليه في عهد أغيلاس، فقد كان أغيلاس شديدا ذا غلظة، صارما مُقتّرا، أما عهد أملاّل فقد أفاض على الحيوانات بعض النعيم ومنحها متنفسا للتعبير.

وحدث ما لم يكن بالحسبان، وانخفضت أسعار الزيت، فتقلصت عوائد الأجمة ونقصت مواردها.. ذلك أن بني زروال لم يهدأ لهم بال حتى كسروا احتكار أجمة الأحرار للزيت وبحثوا في أرجاء بعيدة عن زيت بديل وبثمن أقل. فقلّتْ موارد القصبة ونادى أملاّل على كبير الحمير ليعلم حقيقة ما ألَـمَّ بالأجمة وما قد يؤول

إليه أمرها، وقال كبير الحمير إن موارد الأجمة ستقل إلى النصف وللأجمة نفقات لا تقبل الخصم كجراية الحمير ونفقات الكلاب ودعاية أدرغال، وليس من حلّ، والحالة هذه، سوى تخفيض أرزاق الحيوانات وفرض إتاوات عليها للتغلب على حجم النفقات. واستمع أملاّل إلى كبير الحمير دون أن يقطع برأي، ثم سأله عن المطحنة ومواردها، فأخبره أن مواردها ناضبة، وهي لا تُدرُّ رِبحا.. فارتاع أملال، وتطاير منه الغضب وأرعد وأزبد..

- وكيف تكون المطحنة عبئا وقد كلّفت نفقات كبيرة، وأُريدُ منها أن تكون مصدر ربح ؟

قال كبير الحمير همسا :

- إنما العيب عيب أزگاغ الذي باعنا مطحنة حجرية، وتستلزم طاقة كبيرة من مياه نهر أسيف، ويحدث أن ينضب النهر في الصيف أو يجف فيتوقف الطَّحْن، وكان أحْرانا أن نشتري مطحنة هوائية من عند بني زروال تكلفنا أقل وتدر أكثر، ثم تكون في مأمن من تقلبات النهر، إن فاض كانت في خطر، وإن جف توقفت..

وأطرق أملال لحظة ثم سأل كبير الحمير :

- وما تُرانا نفعل؟

أجاب كبير الحمير :

- أن نستعين بخبرة بني زروال.

وصَرَفَ أملاّل كبير الحمير ثم تولّى إلى القصبة يفكر ويخمن.. وابتدره أدرغال يُذكّره بموعد القنص، فصرفه وأنبأه ألا رغبة له في الترويح.. ثم سار إلى صخرة تيفزة وتمدد هناك وهو يتملى صفحة ماء بحيرة گِلْمة. ما يواجهه من مشاكل هو إرث أغيلاس. لِم أدخل أغيلاس الأجمة في صراع مع بني أزروال؟ لقد كان بنو زروال يُميّزون بين ما يصدر عن الأجمة من دعاية وبين مصالحهم، فما كانوا ليتأذّون إن كان أدرغال يسرد تخرصاته عن بني زروال ماداموا ينالون نصيبا من المعصرة التي بنوها. ثم لِم خصص أغيلاس موارد ضخمة لأشياء لا تُسمن ولا تغني من جوع، ومنها جوقة أدرغال من القردة، وجموع الكلاب، وأعداد وفيرة من الحمير.. وهذه المطحنة التي كلّفت جهدا وهاهي الآن لا تُجدي فتيلا. عاشت الأجمة فوق ما تطيق بفضل عوائد الزيت الذي ارتفع ثمنه، والآن ينبغي للأجمة أن تعيش وضعها الحقيقي وقد انخفضت عائدات الزيت. وكيف

السبيل إلى ذلك؟ فما أسهل أن تنشيء من عدم، وما أصعب أن ترمم بناء متآكلا وتعيد ترتيبه! وستستغلها الذئاب ذريعة للثلب واللوم، وسيَغضب أزگاغ إن علم بصفقة تُبرم مع بني زروال، وستثور السباع إن قلت جِرايتها.. ما العمل؟ وجاشت أفكار شتى في ذهن أملال، وأيقن أن الوقت حان ليتحلل من إرث أغيلاس.

سارت الأمور كما قـدّر أمـلاّل.. تذّمرت الحيوانات وقـد اقْتُطعت أرزاقها، ونفرت الذئـاب تستحثها وتـدعوها للتمرد. وجمع أملال السباع وأطلعها على حقيقة الوضع والخيارات التي يتحتم اتخاذها للخروج من الضائقة، فالموارد انخفضت والمطحنة أصبحت عبئا، ومن اللازم البحث عن مخرج.. ولم يكن للسباع رأي تدفع به، فقد بعُد العهد بينها وبين حقيقة الأشياء.

وتكلم كبير الحمير ودعا إلى أن الأخذ بأساليب بني زروال والانفتاح عليها هو السبيل للخروج من الضائقة.. وقاطعه أحد السباع منتهرا، فالحيوانات لَم تَخُضْ حربا ضروسا ضد بني زروال لترضخ له يوما أوتأخذ بأساليبه.. ! ثم صوَّب كبير الكلاب النظر في الأسد المهذار، وما لبث الأسد أن خفت صوته ثم انقطع، فقد كانت لبوءته تقضي عطلها بحاضرة بلاد أزروال، وأشباله يستمتعون بأطايب العيش هناك، فضلا عن علاقات تجارية أبرمها مع بلاد بني زروال.

وزأر ليث آخر زاعما أن مواثيق تربط الأجمة مع بني زگاغ ولا يليق أن تَخْفَر الأجمة الذِّمة أو تنكث العهد، ولبني زگاغ على الحيوانات دالّة..

وأمسك أملال لحظة وقال :

- إن ما يهم هو مصلحة الأجمة لا شيء سواه..

وعّمت همهمة، كأنما لتأويل مقالة أملال، وأُفسِح لكبير الحمير في الكلام فنهق :

- الحقيقة أن تجارة بني زگاغ بائرة، وهو نفسه يسعى أن يقتبس من بني زروال ليتمثل طرائقهم ويبث لذلك العيون، وما علينا إنْ نحن فعلنا جهارا ما يفعله بنو زگاغ خُفية.

وعاد الليث الذي دفع بالمواثيق للكلام فقال إن رأي كبير الحمير زورٌ من القول، فبلاد أزگاغ موئل المستضعفين ومنارهم، وإن بني زروال يبثون آراء كهاته افتراء وبهتانا..

قال أملال :

- بيد أن الحقيقة تنطق لذاتها، ونفقات المطحنة نخرت موارد الأجمة ولم تأت بطائل.

وعمّ الصمت، ثم استرسل :

- وإذا لم نتدارك الأمر واستفحلت أحوال الأجمة اهتبلتها الذئاب ذريعة واستنفرت الحيوانات.

ثم أشار أملال بعينيه إلى كبير الكلاب.. فنبح الكلب وأسهب حول تحركات الذئاب وما تنشره في الحيوانات وتهيئ له، عن وعلاقتها ببني زگاغ..

وأرخت السباع آذانها وقد راعها ما سمعته من خطر الذئاب. بيد أن ما سمعته لم يكن ليؤثر فيها لتؤازر أملاّل فيما يريد من إصلاح. فلما أعياه إقناعها هدد بأنه سيضطر إلى خصم جِراية السباع إن لم يُجرِ إصلاح الأجمة وإعادة بناء المطحنة. فتبادلت السباع النظر فيما بينها ثم أجازت أملال بأن يضطلع بالأمر لما فيه صلاح الأجمة.

وأسْرى كبير الحمير في جنح الظلام إلى بلاد بني زروال وقد أجازه أملال في أن يتكلم باسم الأجمة. والتقى كبير الحمير بواحد من ذرية بني زروال، تلقب بالثاني، ويسْ سِينْ، عليه غضارة الشباب وأناقة وحذلقة.. ونهق كبير الحمير بعزم الأجمة على إرساء سبل التعاون مع بني زروال، وبأنها قاطعة العزم على أن تضرب صفحا

عن ماض ليست مسؤولة عنه، وأضاف كبير الحمير إن شؤون الأجمة ساءت من جرّاء الاستئثار بالرأي والارتجال في القرار، كأنما ليوحي لمحدثه رغبة الأجمة في أن تُحْدث قطيعة مع أغيلاس وإرثه. واستمع حفيد أزروال لمقالة كبير الحمير ثم نطق فقال :

- إن بني قومي كانوا ينظرون دوما بعين العطف إلى أجمة الأحرار رغم عبء الماضي وثقله، وكانت نية جدي أزروال قبل أن يُقعده المرض والشيخوخة بناء نواة للتعاون، ولكن الطريقة التي طردتم بها والدي أزروال أمزوارو نسفت رغبتنا في بناء شراكة بيننا وبينكم، وانضاف إلى ذلك قرار أغيلاس بمصادرة المعصرة التي بنيناها دون مراعاة لما تم الاتفاق عليه في وثيقة الاستقلال، مما أدى بجندنا أن ينزلوا بالأجمة، هذا، فضلا عن أن ارتماء أغيلاس في أحضان بني زگاغ عمّق الخلاف، ولذلك فالتّعِلة فيما جرى تقع على ساسة الأجمة.

وساد صمت، ثم قال كبير حمير الأجمة :

- إن ما يهم هو المستقبل وإن أملال، رأس الأجمة، عازم أن يفتح صفحة جديدة.

فعقب أزروال ويسْ سِينْ :

- إن ما يقلقنا هو حضور بني زگاغ بساحتكم ونفوذهم فيكم.

قال كبير الحمير إنه ليس مُخوّلا للخوض في قضايا بني زگاغ بيد أنه يعلم أن أملاّل لا يخصهم بالود، وأن الحيوانات تكرههم لغُلُوائهم، وليس لهم من أتباع إلا بعض السباع التي تعتبر نفسها المؤتمنة على إرث أغيلاس، وهي أبعد الحيوانات عن حقيقة الأمور. أما الذئاب فهي تدعولمذهب أزگاغ نكاية في السباع، وأما الكباش فقد تم تدجينها وقد ارتضت الأجمة البعبعة لسانا لها.

وفي خضم هذا اللقاء تقرر أن يَفِد أزروال ويس سين إلى بلاد الأجمة ويلتقي بأملال ويرى عن كثب حالة المطحنة.

وجاء أزروال ويسْ سين، وقد رتّبت الكلاب اللقاء حتى لا يعلم به أحد من السباع أوالذئاب، والتقى بأملال، وكانت نبرة زئير أملال تشي بالعزم على فتح أبواب الأجمة لبني زروال. وقال أملال وكأنه ليرد على مخاوف أزروال ويسْ سين التي كان أطلعه عليها كبير الكلاب :

- إننا لنعلم ثقل الماضي ووقْرَه، ولكن المستقبل يدعونا أن نتجاوز إحَنَنَا لمصالح مشتركة.. وُأدركُ مخاوف بني زروال، وقد اعتزمتُ أن أتحلل من ثقل الماضي رويدا رويدا.. وأنا في حاجة في هذا الظرف إلى سند قومكم من بني زروال، إذ لا أستطيع أن أتحلل من مخلفات الماضي من دون سند..

ولم يرِدْ ذكر بني زگاغ، إلاّ أن أزروال ويس سين فهم مقصد أملال وأنه يعنيهم حين تكلم عن التحلل من ثقل الماضي. وشكر أزروال ويس سين أملاّل على مقالته وأبلغه أن ذوي الأمر في بلاده سيقدّرون قراره حق قدره ولن يتوانوا في دعمه..

ثم عبّر أزروال ويس سين عن انزعاجه من اختيار البعبعة لسانا للأجمة محل لسان بني أزروال. وقد طمأن أملال أزروال ويس سين أن قرار تبني البعبعة هو لعزل الذئاب التي تواطأت مع بني زگاغ، وأن الأجمة فعلت ذلك اضطرارا لاسترضاء الكباش، وليس من سبيل لذلك سوى إقرار البعبعة، ثم إن من مزايا البعبعة أنها تصرف عن التفكير، وختم أملال بالقول : إن لسان بني زروال هو الساري في المرافق الحيوية للأجمة.

ثم شيّع أملال أزروال ويس سين إلى باب عرينه وقال له :

- سأَسِرُّ لك بأمر لا يعلمه أحد، فقد كانت تربطني ووالدك أزروال أمزوارو صداقة.. وكم من مرة استدعاني وأنا بَعْدُ شِبْلٌ للقنص في الأدغال، وكنت أحب طرائقه وأتمثلها، فلما اندلعت حرب التحرير تفرقت بنا السبل وذهب كلٌّ إلى وجهة مغايرة.

ثم رافق كبير الحمير أزروال ويس سين، وذهبا سويا إلى المطحنة. ونظر أزروال ويس سين في حالها ودقق البصر، ثم زمّم ما عاين، ووعد أن يدرس حالها للانتقال بها من مطحنة حجرية تُدار بالماء إلى مطحنة هوائية.

ولم تنقشع أشعة الفجر حتى كان أزروال ويس سين قد طار إلى بلاده، لا يعلم بزيارته إلا كبير الحمير وبعض الكلاب التي رتبت الزيارة.

نادى أملال على ممثل بني زگاغ المقيم في الأجمة، وكان في استقباله له منبسطا. وسأله عن أحواله وأحوال بلدته وإنجازاتها الضخمة وانتشار مذهبها، فقال ابن زگاغ إن الحيوانات في الغاب أصبحت تدرك مرامي دعوة بني زگاغ وما تقوم عليه من أسس العدل والمساواة، وهي لذلك تسري كالنور في الظلام. أما معاقل الاستغلال فقد أخذت تتهاوى واحدة تلوالأخرى..

وتودد أملال في الكلام وقال إن ما يسمعه لطالع يُمن، وهو حريص على السير قُدُما في النهج الذي اختارته الأجمة إلا أن نقصان موارد مما من جراء انخفاض أسعار الزيت يدعو القصبة إلى أن تستغني عن عناصر من بني زگاغ، هذا فضلا عن أن المطحنة التي هي إحدى الإنجازات المشتركة التي تفخر بها الأجمة لا تُدرّ رِبحا بعد!

ثم انفضَّ الاجتماع..

وما هي إلا أيام معدودات حتى انطلقت الذئاب تعوي وتندد بأملال العميل الذي يأتمر ببني زروال. وقد رأى أملال فيما ذهبت

إليه الذئاب يَدَ ممثل بني زگاغ. وما كان ليحفل بعُوائها وهو يروم تلميع صورته مع بني زروال وانفتاح الأجمة على الغاب.

وتلقّى بنو زروال نبأ فَصْل جماعة من بني زگاغ بالاستبشار وأيقنوا أن أملال صادق في دعواه، فبعثوا بأزروال ويس سين لملاقاة أملال مرة أخرى. وأسْرى إلى الأجمة وبحوزته تقرير عن المطحنة. قال أزروال ويس سين بأدب جمّ ألا سبيل لإصلاح المطحنة، فأجهزتها عتيقة ولا يمكن أن تتلاءم مع مِروحة مطحنة هوائية، وأنه يتعين والحالة هذه بناء مطحنة جديدة، وهو ما كان أبوه يعتزم القيام به لولم تباغته حرب التحرير، وأرسل أملال زفرة تمتزج بزئيره :

- إنه ليحزنني أن تذهب نفقات بناء المطحنة سُدًى.

قال أزروال ويس سين :

- وإنه ليحزنني ذلك إلا أنه لا سبيل إلى إصلاحها وإن فعلتم فستظل دوما عبئا عليكم.

قال أملال :

- وما تكلفة بناء مطحنة جديدة؟

قال ابن زروال :

- نَصيبُ ما تنتجه الأجمة لسبع سنين متواليات.

وزفر أملال وقد راعه مبلغ بناء مطحنة جديدة.. ثم قال وهو يروم التودد إلى أزروال ويس سين :

- أفلا نستطيع أن نقيم إنتاجا مشتركا كذلك الذي كان جدك يعتزم القيام به ؟

قال أزروال ويس سين :

- إن بلادي لتستنكف من استثمار كهذا.. فقد رُمينا بكل شائنة من جرّاء ذلك وأُلصقت بنا تُهَمُ الاستغلال، ولذلك أعرضنا عن كل استغلال مشترك، ونحن لا نعدوأن نبني مطاحن مقابل ما نقوم به، ومن يبتغ أن يستغلَّها ويجني أرباحها، يفعل ذلك.

ثم نفث أملال وقد سرح ذهنه. يا لها من فرصة أضاعها أغيلاس وتتحمل الأجمة وزرها. فلو قبل أنذاك بشروط بني زروال لوفّر على الأجمة أموالا باهظة أُهدرت ووقتا ثمينا أُضيع، وعلى الأجمة أن تؤدي ثمن خياره السيّئ اليوم أضعافا مضاعفة.

ثم باغت أزروال ويس سين أملال قائلا :

- وإليك صكّ مشروع المطحنة لتوقيعه.

ونظر أملال وهو لا يدرك ما ورد فيه من كلام مستعصٍ وأرقام متعددة وبيانات متشعبة، ثم وضع مخلبه أسفل الصك، وانسحب أزروال ويس سين مبتسما..

وخلا أملال بنفسه لبعض الوقت، ثم تذكّر أدرغال هذا الديك المهذار، كليل البصر، فنادى عليه وأمره بإصدار بيان يعلن فيه عزم الأجمة على بناء مطحنة جديدة. وتلا أدرغال بيانا بأسايس أمام نفر من الحيوانات كانت في شغل عما كان يردد أدرغال ورد فيه :

- «.. لقد قررت أجمة الأحرار انطلاقا من سياستها القائمة على الاستقلال وعدم الانحياز سن سياسة الانفتاح وذلك ببناء مطحنة على فج تيزي. ولسوف تجني الأجمة من ذلك فائضا يعين على تحسين عيش حيواناتها الأنجاد. ثم إن هذا الإنجاز يضاف إلى إنجازاتها الكبرى».

وتساءلت الحيوانات فيما بينها، وما شأن المطحنة التي بناها بنو زگاغ، أَوَلَم يقل أدرغال، لسان حال الأجمة، في شأنها إنها إنجاز ضخم يعزز استقلال الأجمة ويُرسّخ عدم انحيازها للحيوانات التي تمشي على قدمين.

غريب أمر كبراء الأجمة فهم حين يُعلنون عن شيء فليخفوا أشياء!

انطلقت أعمال المطحنة على مرتفع تاوريرت غير بعيد من فج تيزي، وعُهد إلى الحمير بإنجاز البناء بإشراف بني زروال. وقد عاين بنو زگاغ الأمر فأغاظهم، ورأوا أزروال ويس سين يتفقد المشروع فأحفظهم ذلك. فأوعزوا للذئاب أن تكون أبواقا لهم لكي تصدع لما يُسرّون. وما كان أملال ليتردد في مسيرته، فهو عازم أن يفتح الأجمة لتنال حظها من الرقي، فلم يُفِدْها الانغلاق الذي ضربه عليها أغيلاس، وأملال موقن أن طرائق بني زروال هي السبيل القويم. ولسوف تعرف الأجمة مرحلة من الضر ونقص في الأموال إلا أنها لن تلبث أن تَحْمَد سُراها وتجني نتاج تضحيتها. وكانت الحمير موقنة أن السبيل التي انتهجها أملال هي خير السبل ولن تلبث أن تُؤتي أُكلها.

وسارت الرياح بما لا تشتهيه سفينة أملال، وانخفضت أسعار الزيت ثانية وتقلصت موارد الأجمة. وقد أثار نبأ انخفاض أسعار الزيت غضب أملال فأشبع كبير الحمير قذعا، وقد دفع هذا الأخير

أن انخفاض أسعار الزيت لم يكن في الحسبان، وأنه يجوز والحالة هذه اقتضاء قرض من بني زروال لتواجه الأجمة أزمتها العابرة..

وحلّ أزروال ويس سين بالأجمة، واستقبله أملال وأبلغه حاجة الأجمة لقَرْضٍ لمواجهة عاديات الدهر أولتغطية عجزها حسب تعبير كبير الحمير. وتكلم أزروال ويس سين بكلام لم يفهمه أملال، فيه كثير من الأرقام وكثير من الاحتمالات وكثير من البيانات. وخلا أزروال ويس سين بكبير الحمير ليُفهمه جلية الأمر. ثم عاد كبير الحمير ليشرح لأملال خطة حفيد أزروال، وقال كبير الحمير إن أزروال ويس سين، يَوَدُّ قبل أن يُقرض الأجمة أن يُزجي نصائح لها في أوجه تصريف نفقاتها واستخلاص مواردها.. وقد نصح بإعادة تنظيم مرافق الأجمة كلها. فلما أنهى كبير الحمير نهيقه ضحك أملال ضحكة استهزاء وقال :

- إذن قل لصاحبك ذي القدمين أن يتبوأ هذا المكان ويدير دفَّة الأجمة بلا حاجة إلى الحيوانات.. أهذا ما يريد؟

قال كبير الحمير :

- تلك شروطه إن كنا نريد الحصول على القرض، ولا يمكن

لقطاعات عدة أن تستقيم إن لم نجنح إلى خطته الداعية لتقويم الاعوجاج، وقد نُضطر إلى تخفيض المساعدة التي نُقدمها لغذاء الحيوانات، وقد نُقلّص من جِراية الكلاب والقردة والغربان، وهي قطاعات غير منتجة.

قال أملال بعد صمت، وبزئيره بحّة غضب واستسلام :

- أهذا كل علمك؟ وما قولك في الذئاب كأنك لا تسمع عواءها؟ وما قولك في الكباش كأنك لا تعلم أمرها ولا يخيفك ثغاؤها. يهون عليك ذلك لأن أزروال ويس سين يريد استرداد أمواله وكسب الربح منها. بلى، إنه ليهمني رفاه الأجمة ولكن يهمني بدرجة أولى أمنها واستقلالها..

قال كبير الحمير بصوت خفيت :

- لقد انتهجت أمصار عدّة خطة بني زروال لتقويم ما اعوج من أمرها وما انتكس من هيكلها فحسن أمرها. وهي كالدواء، مُرٌّ مذاقه أول الأمر، ولابد لمن يروم الاستشفاء من تناوله.

وصرف أملال كبير الحمير وكأنه لم يسمع مقالته واكتفى بالقول وكأنما قد بدا له رأي :

- أمّا أنت فما عليك إلا أن تُغدق على السباع، وأما أمور الحيوانات الأخرى فسأبادرها بما مَلَك مخلِبي..

ثم نادى على كبير الكلاب فحضر لساعته. وتحدثا طويلا، وكان أملال يريد أن يعلم أحوال الأجمة، عازما على سلك سياسة الانفتاح مهما كلّفه الأمر، بيد أنه لا بد من الحِيطة.. فالحيوانات لن ترضى أن يُشرَك بنو زروال في أمور الأجمة، ولا هي ستقبل أن يُقتطع من أرزاقها..

وقدّر أملال ثم قدّر ورأى ألا محيد من الحزم، وهو ثمن الإصلاح الذي يروم إجراءه. وعزم على اتخاذ جملة من القرارات الصارمة، ثم نادى على أدرغال ليتلوَ بيانا يدعو فيه الحيوانات إلى الانضباط والتراص وقد دخلت الأجمة مرحلة من التقشف، ويحذرها مغبّة العصيان، ثم يُذكّرها بتضحيات أجدادها الذين ضحوا بالغالي والنفيس من أجل رفعتها..

واستقبل أملال أزروال ويس سين وأخبره بأن الأجمة على أبواب مرحلة جديدة وتريد دعما من بلاد بني زروال.. وقد فهم أزروال ويس سين قصد أملال ووعد أن يفعل، وكانت تلك كناية لكي يَغُضَّ الطَّرْفَ عن كل التجاوزات التي قد تلحق بحقوق الحيوان.

كان أخطرَ قرار اتخذه أملال أن طرد فلول بني زگاغ بلا أدنى إرعاء، وتلا ذلك بيان لأدرغال أغلظ فيه القول لبني زگاغ، يُدين فيه نزوعهم للتدخل فيما لا يعنيهم كأن لم يعوا أن أجمة الأحرار سيّدة على أرضها. وتعقبت الكلابُ الذئابَ واتهمتها بالعمالة لصالح أزگاغ ومنعتها من الاجتماع بأسايس.

خلال ذلك، داوم أزروال ويس سين على اللقاء بكبير الحمير لتنفيذ الخطة التي أعدّها. وأوحى إليه بتسريح حمير المعصرة التي أصبحت عالة عليها. ثم إنه تولى تنظيم المعصرة تنظيما حديثا واستخدم نفرا من الدواب هجينة وعاقر وهي البغال، وأصلها من أتان ذهبت لتتلقى تكوينها في بلاد بني زروال فلقّحها بخيوله وبعث بها إلى الأجمة. وكانت البغال أشد الحيوانات تمثلا لطرائق بني زروال في التسيير وأكثرها معرفة لتقنيات التدبير. وقد أخذت البغال تحل محل الحمير. وكان قسط كبير مما تُدرُّه المعصرة يذهب لتسديد الدَّين وتغطية نفقات الحمير والبغال وخدمات أزروال ويس سين أيضا.

وفرض كبير البغال الذي أصبح ذا حظوة تفُوق حظوة كبير الحمير إتاوات على الحيوانات بإيعاز من أزروال ويس سين.. فعوائد الأجمة لم تعد كافية لبناء المطحنة وتسديد الدَّين.

واستمرت أعمال بناء المطحنة على قَدَم وساق، واستقبلت الحيوانات هذه الإجراءات بكثير من السُّخط، فقد قلّ معاشها وساءت أحوالها، وكانت تُمنّي نفسها بيوم تُثاب فيه لما بذلته من تضحية وهي ترى هذا اليوم كالسراب، كلما اقتربت منه تناءى وتبدد.. ورأت الكلابَ على أثَرِها تتعقبها وقد عادت سيرتها في الزجر والقمع. وتعقبت الكلابُ رؤوسَ الذئاب وحاصرتها، وعاقبت بعضا من الأرانب تجاسرت بقول ما لحقها من ضر. وبلغ الأمر بالكلاب أن لوت لسان البلبل لأنه غنى شدوا يعبر فيه عما يخالج الحيوانات من أسى، وفعلت ذاتَ الشيء بحمام لما أن قال إن الأجمة في عهد أملال لا تختلف عنها في عهد بني زروال، وأن الاستعمار عاد من جديد في حُلّة جديدة، وأن ما يُدعى بالانفتاح هو استعمار في حقيقة الأمر، فقصّت الكلابُ جناحه واضطرته للنزول من عَلْياء سمائه ليمشي على الأرض ويبحث عن الحَبّ، فهزُل وضمُر، ولم يستطع أن يُحلّق في الأجواء، واختلط بالحيوانات يصارع من أجل لقمة العيش، ولم يعد شيء يميزه عنها، فأخذت

الحيوانات تنظر إليه بازدراء وهو الذي كان يهديها بثاقب نظره وعميق بصيرته، وقد ابتُذل لما أن قُصّت جناحه.

وكان أملال يدرك ضُرَّ الحيوانات، وكان يغضب لَمّا يأتيه كبير البغال ليخبره أن أزروال ويس سين يريد رفع الإتاوات، أو فرض نفقات لم تكن مُقدّرة، فيزأر أنْ بلغ السيل الزُّبى.

وما هي إلا أيام حتى ترددت الأنباء من بلاد بني زروال عن أن نفرا منهم يستنكر معاملة السباع للحيوانات وسيرة الكلاب فيها، تسيمُها الخسْف وتُحمّلها من الأمر عُسْرا، وقد تحدثت عن حصار الذئاب وأطنبت، وعذاب الأرانب وأسهبت، واستنكرت محنة البلبل وكبوة الحمام، وطالبت أن توقف بلادها المساعدات التي تُفيضها على أجمة لا تُراعَى فيها حقوق الحيوان.

وغضب أملال لما أن بلغه ذا الخبر، فسعى أن يترضّى بني زروال لتكفّ حملة الانتقاد وليستمر التعاون، ولم يجد بُدا من أن يذعن لشروطهم.

وعلمت الكلاب أن أزروال ويس سين ربط علاقات مع الذئاب من خلال وسائط له، وكانت الذئابُ أحذقَ الحيوانات

على تمثل لسان بني زروال، تعوي به سهو ا ورهو ا. وتأكد الأمر للكلاب لما آن أتى أزروال ويس سين يوما يتشفع لدى أملال ليرفع الحصار عن رؤوس الذئاب.

وأشرفت أعمال بناء المطحنة على الانتهاء، وحامت الحيوانات حول هذه المعلمة التي تُجسّد الانفتاح. قال أرنب بسخرية لاذعة، وقد قلّب النظر ذات اليمين وذات الشمال توجُسّا من آذان الكلاب:

- لعل ما يعنون بالانفتاح انفتاحهم هم على العالم، أما نحن آكلي العُشب فلم نبلُ في تاريخنا الطويل سوى الضُّر والبطش.

عُهد إلى الحمير بالتحضير لمراسم تدشين المطحنة تحت إمرة البغال التي تولت شؤون الإدارة. وقد استُجلبت لهذا الحدث المشهود أسباب الزينة التي تزخر بها بلاد بني زروال. وأما الكلاب فلم تدَعْ بُقعة من بقاع تيزى حيث الحفل، إلا شمتها، ولم تترك حيوانا مريبا إلا استوقفته، ذلك أن حضور ممثلين من بلاد بني زروال أثار مخاوف الكلاب من أن يبدر من الحيوانات أمر مَشين، ولذلك صرفت وقتا ثمينا لتتبعِ سيَر الحيوانات التي ستجتمع في تيزي لليوم المعلوم الذي يُؤرخ لعهد جديد مع بني زروال قِوامه التعاون ومُرامه دفن الإحن والأحقاد وتناسي الضغائن..

وحل اليوم الموعود، واصطفت السباع وكبير الكلاب وكبير البغال على المصطبة، وفي مكان خاص تربع أملال محاطا بكبير بني زروال الذي حضر خصيصا لهذا الحدث الهام. واعتلت القردة تغني وترقص، وتلاها أدرغال يتلو خطبته المنمقة عن فضائل الانفتاح الذي سيعم خيره الأجمة وتشمل فضائله حيواناتها بلا استثناء..

وفي ختام الحفل وشّح أملال أزروال ويس سين بقلادة من درجة مُفترس - وهي أكبر تتويج - على جهو ده التي بذل لإنجاز هذا المشروع الضخم الذي يُرسِّخ عُرى التعاون مع بني زروال.

وفصَل الموكب، وقفل أملال إلى القصبة مصحوبا بأزروال ويس سين وهما يتأهبان لجولة قنص. واستعاد أملال ابتسامته بعيدا عن طقوس الحفل وهالتِه فقال :

- إنه لأحسن يوم في حياتي، ذلك أني رددت الأجمة إلى المحجَّة البيضاء وقد زاغت عن السبيل.

قال أزروال ويس سين :

- إنها بصيرتكم وحِلمكم، وبلادي تُكبر ذلك فيكم..

قال أملال :

- أنا حريص على دوام هذه العلاقة وترسيخها وأبتغي من المطحنة أن تكون إحدى حلقاتها، ونجاحها يُهيئ لنجاحات أخرى.

وتنحنح أزروال ويس سين ثم قال :

- إنا لنُولي نجاح المطحنة أهمية قصوى، ولذلك نرى أن يُعهد في تسييرها إلى من يؤنس فيه الإقدام والحرص على الربح من الحيوانات.

قال أملال :

- ومن تراه أهلا لذلك؟

قال أزروال ويس سين :

- هي الدجاج..

فلما سمع أملال مقالته خرّ ضاحكا واستغرق في الضحك، حتى عاوده حِلمه فقال :

- كأنك لا تعلم تاريخها وكُرْه الحيوانات لها.

قال أزروال ويس سين :

- إنّ شؤون المعاش هي ما يهم في نهاية المطاف، والحيوانات تنسى أحقادها إن هي ظفرت بأرزاقها..

ثم ذهبا إلى القنص واصطاد أمْلاّل غزالا كثيرا ذلك اليوم، واغتنم أزروال ويس سين انبساطه لُيحدّثه في شأن الدجاج، وأسهب في مزاياها، وحببها إليه دافعا أنها ستكون طوع قوائمه.

ورأت الحيوانات الدجاج وقد خرجت من مخابئها لتتولى الإتجار، تشتري من بلاد بني زروال ما تحتاجه الأجمة من غذاءٍ ومُؤَن وتبيعه لحيوانات الأجمة أضعافا مضاعفة.

وجنت الدجاج أرباحا طائلة وخصمت منها البغال قسما لتُوزّعه على السباع والكلاب وقسطا تؤدي به الديون المستحقة لبني زروال. وأما بقية الحيوانات فقد تردّى حالها، فقد أثقلتها إتاوات الحمير ونال منها بطش الكلاب وناء بها غلاء العيش، سوى الكباش التي رغم ما مسّها من ضر فقد كانت راضية ببعبعتها ترددها آناء الليل وأطراف النهار، تكتشف أسرارها وتنشرها في صفوفها وقد تزايد نسلها وتضاعف عددها..

وازداد خراج السباع وتمثلت طرائق بني زروال وبعثت أشبالها إلى بلاده ليتم ترويضها هناك. عاشت السباع والدجاج في بحبوحة من العيش.

وقد ازدهى أملال جراء نتاج الأجمة وحسب أنه بريء من عقدة أغيلاس الذي عُرف عهده بالذهبي حين ارتفعت أسعار الزيت. أما هو فقد نقلها من الخصاص إلى الرفاه بفضل خيارات هي بنات أفكاره.

وقد أفادت كل من تقارير كبير البغال وكبير الكلاب رفاه الأجمة واستتباب الأمن بها بفضل السياسة الرشيدة التي انتهجها أملال، ومن حقه أن ينام قرير العين.

ولوأتيح للحمام أن يقول كلمته لقال إن طفرة الأجمة لزائفة، فقد ازداد نتاجها فعلا ولكن توزيعه ساء وانحصر في فئة قليلة.

أدبر المصيف وهبّت رياح سَموم تُنذر بأزوف الخريف، وتوالى هبوبها، فنفضت الأوراق عن الشجر واستحال لون الأجمة إلى الصُّفْرة وأضحت جهماء حزينة. وحدث أن قصد أرنب أثقل عليه السَّغَب المطحنة لبعض النخالة، وحدّث بذلك إحدى الدجاج في رفق، فأغلظت له في القول، ثم ألح في الطلب ووعد أن يؤدي الثمن نَسيئة كلما تحسنت حاله. فصرفته الدجاج صرفا غير رفيق وتوعدته لئن لم ينته فستنادي على الكلاب، وما هي إلا لحظة كلمح البصر حتى انقض الأرنب على الدجاجة، وما هي إلا لحظة حتى قفزت جموع الأرانب والجرذان، لا يُدرى من أين أتت كما لو أنها نزلت من السماء، على المطحنة فغشيتها، وانهالت الجرذان على بغل المطحنة فأشبعته عضا ولم يجد بُدّا من الهرب، وأخذت الأرانب والجرذان ما شاءت من الحبَّ والطحين، وأتلفت الأكياس الأخرى.

وطار خبر تمرد الأرانب والجرذان إلى بقية الحيوانات، وتبعتها جموع غفيرة من الكباش ولّت شطر المطحنة، وانهالت عليها نطحا

فحطّمتها.. وما هي إلا ساعات حتى حلت الحيوانات من كل فج فملأت أسايس وغشيت المعصرة، وتعقبت الحمير، وأتلفت وكسرت وهشّمت كل الذي كانت عنه مُذادة.. واغتنمتها الذئاب فرصة فاعتلت تخطب في أسايس تعوي بأن يوم الخلاص قد حل، وأن النصر وشيك..

وركض كبير الكلاب إلى القصبة لملاقاة أملال، وكان لا يزال يغط في النوم، وصدّه أدرغال عن دخول العرين، ونبح كبير الكلاب أن حازبا من الأمر طرأ يستدعي إيقاظ أملال. غير أن أدرغال أبى أن يستجيب لطلب كبير الكلاب، وظل كبير الكلاب ينتظر أن يستيقظ أملال وهو يتميز من الغيظ، وقال كبير الكلاب للديك لأدرغال والغضب يتطاير منه :

- أنت شر من الذئاب، بله من الكباش.. وستلقى مني جزاءك بعد حين.

وكانت أصداء صياح الحيوانات وهياجها تَرِدُ إلى كبير الكلاب.

فلما استيقظ أملال، أبلغه كبير الكلاب بأن الحيوانات آكلة العشب حطمت المطحنة ودوّخت المرافق الحيوية للأجمة واحتلت

تاوريرت وألمو، وتبعتها حيوانات كَلْمة وتالا، وملأت ساحة تافسكا وهي على مرمى حجر من القصبة تتهددها، إذاك أمر أملال كبيرَ الكلاب أن يُتخن فيها.

وجمع كبير الكلاب كلابه وأرسلها في أعقاب الحيوانات آكلة العشب. واستعرّ القتال وكانت المعركة حامية الوطيس بين الكلاب والحيوانات آكلة العشب. وأبلغ كبير الكلاب أملال أن الكلاب غُلبت على أمرها وألا سبيل لإطفاء ثورة الحيوانات إلا بالاستعانة بالسباع.. ولم يسبق للسباع قطُّ أن خاضت عراكا مع الحيوانات، حتى لما أن أزاحت الذئابَ فيما سمي بمسار التصحيح، وقد أسبغ عليها بلاؤها الحسن ضد جند بني زروال هالة من التوقير والتبجيل.. فلما طام بحر الحيوانات رأى أملال أن يبعثها لتوقف مد الحيوانات آكلة العشب.

وخرجت السباع إلا نفرا قليلا منها مما أثقلها البَطْر ولم يعد يقدر على المواجهة، لتطفيء نار التمرد. وأخذت تفترس كلَّ ما اعترض سبيلها بلا أدنى شفقة. واستمر القتال شديدا لا نكوص فيه بين الجانبين قبل أن تسترد السباع طلل المطحنة، وتصد الحيوانات آكلة العشب عن أسايس..

كانت الحصيلة مريعة، فقد ملأت الجثث أماكن المواجهة وتطايرت أشلاؤها.. ثم انحاشت السباع إلى الأماكن النائية حيث اعتصمت الحيوانات آكلة العشب بكُلْمة وتالا وتاوريرت فدوّختها.. واستمر القتال لأيام ثلاثة قبل أن تخمد نار التمر.

واستفاقت الأجمة على منظر مهول، فقد ملأت جثثُ الحيوانات آكلة العشب جنبات الأجمة، وسالت جداول من الدِّماء وتعطلت حركة الإنتاج وتعقبت الكلابُ بعدها بقيةّ الحيوانات تستخبرها عن أسباب ما وقع.

هو خريف الغضب هبّت رياحه العاتية على الأجمة، فأحدثت نزيفا وجرحا ثخينا مزّق جسم الأجمة وهلهل سَداها.

كان حجم الخسائر فادحا. فقد دُمّرت المطحنة عن آخرها، وأُلحِقت أضرار جسيمة بالمعصرة، أما عدد القتلى فقد كان مُروعا. ولم تستطع السباع أن تجهر بالعدد الحقيقي فأمرت أدرغال أن يعطي رقما أقل بكثير من الحقيقة. ولأول مرة شعر أدرغال بالرُّعب وهو يلقي قوله، وشيّعته الكلاب إلى أسايس ليتلوبيانه، ولكن الحيوانات كانت مُعرضةً عنه، فلم يجشم أحد نفسه عناء الحضور. كانت الحيوانات في غِنى عن أن تسمع تُرّهات أدرغال والحقيقة تنطق لنفسها، وَمنْذا يستطيع أن يحجب الحقيقة؟ ثم تولى أدرغال مُغْتَمّا وقد أيقن أن ساعته أزفت. وعلى حين غِرَّة أصابه حجر، ونبحت الكلاب نباحا خافتا لتزجر الراشق، ولا راشق في العيان، كأنما هو حجر هو ى من السماء!

لا شيء سيظل كما كان في أجمة الأحرار إذن، فالحيوانات آكلة العشب رغم جرحها الثخين لن تقبل أن تُساق حتف أنفها، والسباع أدركت أن الحيوانات لن تنام على الضيم، ولن تستطيع الكلاب أن

تأخذ الحيوانات بالرهبة والوعيد كما كانت تفعل من قبل، أوتصول وتجول كما كانت تفعل بلا رقيب.

وحلّت بعض الذئاب بأسايس وأخذت تعوي عُواء الاستنكار لسيرة السباع وتُحمّلها مسؤولية ما آلت إليه الأجمة، فخريف الغضب هذا ما كان لتعصف زوابعه لولا استئثار السباع بالأمر. وتحلّقَ حولها نفر قليل من الحيوانات آكلة العشب ثم انفضت من حولها.

واجتمعت السباع لتدارس نتائج خريف الغضب، واستمعت لتقرير كبير الكلاب، واستوقفه أملال وقد علته كآبة، ثم زأر مُحَدّثا ضرباءه من السباع :

- الحقيقة أبشع مما تقدّرون، ولا يمكن للأمور أن تظل على حالها، ولا بد من إشراك الحيوانات في شؤون الأجمة، وإلا فلن نسلم من زلزال كهذا الذي فاجأنا قد يعصف بكل شيء.

وزأر سبع لم يبرح عرينه خلال العاصفة.

- إن الحيوانات آكلةَ العُشب لا تعرف لسانا أبلغ من الزجر، وإن هي سيقت بالعصا رضخت.

وقال السبع الذي قاد حملة إطفاء الثورة :

- لقد كان القتال ضاريا، ولن نَسلمَ إذا ما تكررت العاصفة أن تزحف الحيوانات كالبحر الطامي على القصبة، وإن هي فعلت أتت على كل شيء.

قـال أمـلال :

- لا بد من إعطاء الحيوانات شعور الانتماء إلى الأجمـة. فَلْندعْها تصرخ إن شاءت... فهذا ما تريد، ولْنخففِّ الخناق عليها، وتقضي صروف الدهر بعدها أمرا كان مفعولا.

وحل أدرغال بأسايس ليعلن على الملأ قرار السباع بإشراك الحيوانات في الأمر. وكان بصوته بحّة لم تعهدها الحيوانات، كأنما أصابه العيّ فلم يُبن، وصرفته الحيوانات صارخة في وجهه، فليست هي مِنّة تجود بها السباع وإنما هو حق انتزعته الحيوانات انتزاعا وأدّت ثمنه غاليا.

أما الكباش فقد انشغلت بتضميد جراحها ومدّ العون لما مزّقته مخالب السباع والكلاب. فعلت ذلك في إخلاص كبير. فلم تتوان عن مساعدة ضحايا خريف الغضب ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

كان من علامات التغيير أن ملأت الحيوانات أسايس تجهر بما يخالجها من أمر مما كانت لا تجرؤ على الصّدع به من قبل أو تخشى البَوْح به رهبة من الكلاب. وقد نشطت الذئاب في استمالة الحيوانات مُنْحية باللائمة على السباع، غير متحرجة من أعنف الانتقاد وأقذع العُواء، وغشيت الكباش أسايس هي أيضا وقد خرجت من عزلتها لتصدع بأمرها. وكان فيها كبش غير ذي قرنين، لَسِن ذوفصاحة وبيان هو أفَرْطاس، حذق لسان بني زروال، يسهب في الحديث ولا يقول شيئا، وملك ناصية لسان السباع إذ كان يحسن الزئير، وأتقن العواء فضلا عن البعبعة التي لا يُشقُّ له فيها غبار. وكان إذا ثغا بلسانه البعبعي ألهب حماس الحيوانات آكلة العشب واهتزت أوصالها وفقدت أطوارها، فيستنكر استئثار السباع بالأمر واستبدادها، وطمع الدجاج وجشَعها، وجبروت الكلاب وبطْشها، وضيق أفق الحمير وَصلَفها، وحذْلقة البغال وعجرفتها... ثم يعيد الحيوانات إلى مصدر الداء هذا الذي حلّ بالأجمة فيسألها مُبعبعا بثُغائه الجَهْوَري :

- ومتى كان ذلك يا إخوان؟

فُترخي الحيوانات السمع مأخوذة بسحر بيانه :

«- مذ حل بساحتنا الحيوان ذوقدمين، وكذلك كان في سالف الأزمان حتى أصبحنا غرباء في أجمتنا، وهي مستودع الأجداد وأمانة الأحفاد. أتحسبون أن بني زروال غفروا للحيوانات أن أخرجتهم من ديارها؟ كلا، فالضغينة تبقى وإن كمُنت أحيانا. أوَ يُعقل أن يحكمنا أزروال ويس سين وقد طردنا أباه شر طردة، وبذلنا من أجل ذلك أرواحنا. أترضون أن يُهدر هذا التراث؟ أتقبلون أن يذهب ما بذله آباؤنا عبثا؟ أجيبوا... لن يصلح حال الأجمة إلا بما صَلُح به أولها، وهو طرد الدخيل ومعاقبة أذنابه. ومتى كانت الحمير، وهي صنيعة بني زروال، أهلا للاضطلاع بالمسؤولية؟ أوَ هُنّا حتى تُسلّط البغال على رقابنا؟ وما تدري البغال من أمرنا؟ بلغني أن أمطارا انهمرت بتاغزوت ففاض النهر وطام السيل وأتى على الزرع. أتحسبون أن الحمير هذه التي تثقل كواهلكم بالإتاوات هبت لنجدة من نُكب؟ هي الحيوانات آكلة العشب التي تضافرت جهو دها لتحويل مجرى النهر وقد كاد أن يغمر ألمو، وإن هذا، لعَمْري، للخسران المبين.

وهـذا البغل الـذي يمشي على الأرض مَـرَحا من أين أتى وبمن يأتمـر؟

يا إخوان، أتنسون ما سامكم الكلاب من عذاب؟

كأنّي بكم وقد غلبكم النسيان.

هُبّوا يا مستضعفي الأجمـة لتؤُمّوا الأجمـة.

اقتحموا العقبة».

فتجِم الحيوانات كأنما سِحْرُ ساحر استلب ألبابها.

وأحيانا يحدثها أفرطاس عن خيرات الأجمـة :

«- وخيراتنا هذه التي تزخر بها أرضنا تذهب سائغة لبني أزروال وننام نحن على الطَّوى. وأين الرفاه لموعود؟ وهل نِلتم خراج المطحنة، وهل نِلتم حظَّكم من خيرات الأجمـة؟ أخْلِصوا بأيمانكم وأجيبوا، أمْ أن خيرات الأجمة منذورةٌ للسباع، موقوفةٌ على الكلاب، خالصةٌ للحمير، مبذولةٌ للبغال، سائغةٌ للدجاج. لا يغرنّكم صواء الذئاب. فلَكَمْ أجزل لها ابن زروال العطاء وقبله آل أزگاغ. ولوأن عوائد الأجمـة صُرفت بالقِسْط لكَفَتْ حاجة كل محتاج. أنظروا إلى زيتونها وحَبّها، انظروا إلى عيونها ووديانها. وماذا صنعت السباع من هذه الخيرات؟ وُربَّ حال أفصح من مقال».

وتنظر الحيوانات فيما بينها وتُحرّك رؤوسها علامة على الإيجاب، فإذا فرغ أفرطاس من خطبه تكلم رفيق له ذو قرنين منكسرتين، يدعى أكانْبو ليس له ذرابة أفرطاس بيد أنه لم يكن أقل تهييجا للحيوانات آكلة العشب.

«- واهمون من يحسبون أننا نريد الإشراك في الأمر. كأنما نسينا ما بلونا من الحيوانات آكلة اللحم وأذنابها من الحمير والبغال من آكلي العشب.اغتِيل أعلوش ظلما، وقُتل أزمير شر قتلة، ومُزقت تاوتولت شر ممزق، وكذلك فُعل بأحيزون.. تذكروا خريف الغضب وضحاياه. ما من أحد منا من لم تكتو كبده لفقد حبيب أو قريب. لابد من الثأر.. بزغ عهد النطح، النطح»..

وتُردد الكباش : النَطحَ، النّطحَ، وتقف الجرذان على قدميها الخلفيتين وهي تُبدي قواطعها وتَصُكُّها كما لتُشْهِرَ سلاحها وما تعتزم القيام به من قرض متاع الأجمة، أما الأرانب فكانت تقفز في الهواء مستديرة حول ذاتها تعبيرا عن الحبور.

وكثر أتباع الكبشين وازداد عددها، وامتلأت ساحة أسايس بها، حتى أغضب ذلك الذئاب وقد نفرت الحيوانات عنها، فصبّت جام انتقادها على الكبشين اللذين استدرجا الحيوانات بطلاوة ثغائهما،

والحال أن سياسة الأجمة تقتضي المعرفة بكُنْه الأمور، وَمنْ للكباش بمعرفتها، ومبلغ علمها البعبعة، وكيف تبنى علاقتها مع العوالم المحيطة، أتحسب أن السياسة خطابة؟

فيرد عليها أفرطاس، الكبش اللسِن:

«- زعمت الذئاب ألا معرفة لنا بكنه الأمور؟ أما هي فأمرها دس وحيلة، وتآمر وخديعة، ومكر وغيلة..ماذا قدمت لما أن كانت مالكة لأِزمَّة الأمور؟ حسبت أنهم بترديدها للسان بني زروال ومقالته والتقرب إليه هي على شيء. الحق أبلج، والباطل لجلج».

ثم يُعقّب أكانْبو :

«- أحْرى بالذئاب أن تصمت هي صنيعة الدخيل.. صنيعة أزگاغ وذنَب أزروال.. لن ننسى، ولسوف تلقى جزاءها، وهو شر الجزاء».

وبدا واضحا أن السباع لم تعد مالكة لزمام الأمور، فهذا اليسير من الغضب الذي قبلت به السباع متنفسا للحيوانات أصبح كالسيل الجارف..ولم تسلم السباع من الانتقاد هي التي أثخنت في الحيوانات أثناء خريف الغضب فيُعرِّضها أفرطاس لشّنيع انتقاده :

«- كنا نحسب السباع دِرْءا لنا نُرهب بها أعداءنا، وكنا نغض الطرف عما تستأثر به في قصبتها التي يحجبها الصنوبر عنا، حتى شاهدنا بأم أعيننا صنيعها بنا، ورأيناها قاهرة لنا.. أين هي دعوة العدل التي كانت تُسَخِّر أدرغال اللئيم ليصك بها آذاننا.. كذب، كذب.. قد ولى العهد الذي يمكن أن نصمت فيه وقد جاوزت المحظور»..

ويسأل أكانْبو الحيوانات :

«- كم خراج أمـلال؟ عُشُر نتاج المطحنـة.. أي نعم. ولِم ذلك؟ لأن للبوءتة المصونة عوائد كعوائد بني أزروال، ولأن أشباله الغطاريف لا تستطيع أن تُروّض إلا في بلاد أزروال؟

ثم يضيف هازئا :

- هـل أتاكم حديث شبله وما يكلف خزينة القصبة؟ هـذا الذي قتل حَمَلا في نزهة صيد، خطأ، - زعمت الكلاب - واغتصب غزالة، بمحض إرادتها، - أبلغنا أدرغال - هل أتاكم حديث خليلاته، ونبأ أصحابه الميامين وهم يقصفون على جنبات الشُّرْب، أويَرحلون إلى بلاد بني زروال للاستمتاع بما لذ وطاب ؟

.. بورك فيك أيها الشبل، يا من يجاهد فينا حق الجهاد، وينفق من خزينتنا إنفاق من لا يخشى الفقر..نحن فِداك.»

ثم يستحث الخراف وبقية الحيوانات آكلة العشب أن تسير في ركابه وهي تهتف أقوالا لاذعة في حق أملال :

« أملال الفجر هلّ، والصبح حلّ والظلام باد».

«نم، نم يا كسول، ودع الأرض الطَّهور».

«يا سباع ويا ذئـاب، آذني بالحساب، قد حل يوم العقاب».

فتتكوف الحيوانات على جنبات القصبة لتُسمع السباع في عرائنها موجة الغضب وهي تهتف بألسنة حداد ما يُلقنها أكانبو من وعيد.

وتبتهلها الذئـاب فرصة لتُحمّل السباع مجريـات الأمـور :

«- لقد حركت السباع الكباش ضدنا يوم أن تبنت البعبعة، وهاهي تنال جزاء قصور نظرها وتتحمل المسؤولية كاملة في هذا الانزلاق الخطير».

وأخذ كل يلغو بلسانه، وأصبحت أسايس كبرج بابل يكثر فيها اللغط، واستهوى ذلك البلبل في أن يغني هو أيضا، ففعل ولكن بُحَّته لم تبرحه، فقد ذهب عليه زمن لم يُغَنِ فيه.

واعتلى الحمام أثبير أمْزيان أعلى الدوح يرمق ما يعتمل بالأجمـة، وقال إن ما يحدث لطالع يُمْن، وأن ما تعرفه الأجمـة من تجاوز في

القول هو من جرّاء الخناق الذي ضُرب عليها، ولسوف ترجع إلى بعض الاعتدال إن هي أدركت أن الحقيقة ليست مِلكا لفصيل دون آخر، ولكنها ملك مشاع بينها، كلٌ يأخذ منها بنصيب.

حسب أملال أنه إن أتاح للحيوانات أن تجهر بذات صدرها فلسوف يخمد أوارُ غضبها بعد حين، فتنطاع ثانية، فإذا هذا المتنفس مارد لا يمكن كبحه. وقد أساء قراءة أحوال الأجمة، كما أساءت الكلاب سبر أغوار نفوس الحيوانات، فلم تستطع أن تتنبأ بما تحويه البعبعة من بريق وما لها من تأثير في نفوس الكباش خاصة. وحسب أملال أنه إن أفسح للكباش بالنطق بلسانها اكتفت بذلك، ولكنه أساء التقدير، وها هو أولاء يرى مدَّ الكباش الزاحف.

وكان أملال يدرك ألا سبيل للعودة إلى الأساليب القديمة في الزجر، فهذه لم تستطع أن توقف رياح خريف الغضب العاتية أوتتوقعها. وقد دُفعت السباع لأن تثخن في الحيوانات، وهي سابقة مَشينة لا يحسن أن تتكرر، وفضلا عن ذلك فقد فقد أملال سندا كان يعتمد عليه وهو نزاع بني أزگاغ وبني زروال، وقد سرت الأنباء أنهم في طي خلافهم. فقد تعبوا من عداوة كلفت بنيهم طاقة كبيرة، وأهدرت ثروات جمة، ثم إنهم ينحدرون من نفس الصُّلْب، وتجمعهم

مصالح مشتركة، وقيل إن أزگاغ اعترف بذنبه وأقر بصواب رأي ابن عمه. وكان أغيلاس قد انحاز إلى بني زگاغ ضدا على بني زروال، ومال أملال في اتجاه معاكس. أما الآن فإن بني زروال ليسوا في حاجة إلى أجمة الأحرار ليناوئوا بني زگاغ. وهم الآن في حَلٍّ من كل الاعتبارات تُجاه الأجمة، فلن يترددوا في اقتضاء أموالهم التي أقرضوها للأجمة ولن يتورعوا في فضح تجاوزاتها وأخطائها وقد كانوا قبلها يتسترون عنها.

لذلك كان رأي أملال أن تسير السباع سيرة جديدة فُتجاري هذا المَدَّ العاتي، وتنزل هي الأخرى إلى أسايس فتُخاطب وتُقارع وتُساجل. وَمن للسباع بذلك؟ فهي صاحبة قوة وبأس، ولكنها لا تعرف الخطابة ولا الحوار، ولا هي تستطيع أن تستعين بدعاية أدرغال وقد أجمعت الحيوانات على مقته، ولذلك اختارت السباع الليث أزلماط، وكان أعسر، أن يتكلم باسمها وهو أقدرها على الكلام والخطابة. ونزل أزلماط من علياء القصبة إلى أسايس ليخوض مع الخائضين من الذئاب والكباش. وزأر أقوالا عن أيادي السباع إبان معركة التحرير واستلام زمام الأمور في ظرف عصيب. وإذا كانت السباع قد أخذت على عاتقها المسؤولية كاملة فلأن خطورة الظرف استلزمت ذلك، وما كان لها أن تتخلى عن ثقل المسؤولية والأخطارُ

مُحْدقة من كل صوب، وبنيان الأجمة أنذاك هش، قد تعصف به الأطماع المتربصة في كل حين. واستطاعت السباع أن تقيم أجمة ذات بنيان متين وتفرض نفوذها في العالمين. وختم بالقول : إن السباع لم يغب عنها قط ضرورة الإشراك في الأمر، وها هي أولاء تحتكم لخيار الحيوانات وقد بلغت ما بلغت من نضج ووعي.

وما أن فرغ السبع من مقالته حتى انبرى الكبش أفرطاس يُلهب حماس الحيوانات مرددا :

قل للسباع لا تلهينا ... بزُخرف قول ليس ينسينا
جَوْر أمس ونَدْب جُرْح ... وآثار قيد، تالله، يدمينا
وإن هي تولت بقول ... ظاهره، يا أحبَّةً، يرضينا

ويعقب أكانْبو :

«- الآن وقد مُنيت السباع بالخُسْران تدعو إلى الإشراك؟ كلا. نحن لا نريد الإشراك مع من خان ميراث الأجمة وذكرى ضحاياها»..

وتَردُّ الذئاب :

«- إن الكباش لشر من السباع، فهي تلعب على حبلين. تقول

بالإشراك في الأمر لاستمالة بقية الحيوانات، وتؤمن راسخ الإيمان بالاستئثار بالأمر. استمعوا إلى مقالة أكانْبو، وأنْذروا إن انقادت الأمور للكباش بجداول من دماء»..

فيرد الكبش أفرطاس :

« - إن إخوتنا الذئاب لتغلو علينا، تخلط البريء بذي الذَّنْب، فهي تحكم علينا بما لم نأت، وتريد أن ننسى ما أتت، فليس ذلك من العدل. تريثوا قليلا، لنحتكم للحيوانات تفصل بيننا. أليست هي صاحبة الحل والعقد ؟».

فتجيب الذئاب :

« - إن أفرطاس لأخطر من أكانْبو، فهو يُسرُّ ما يعلنه أكانبو، ولا خلاف بينهما في المرامي.. والكباش خطر على الأجمة عموما.. فهي تجاهر كل واحد بالعداء كأنما الأجمة معزولة عن العالم. فللأجمة مصالح متداخلة، وتربطها مواثيق مع الغاب، فإن تولّى الكباش الأمر ضُربت العزلة على الأجمة».

ويُعقِّب أفرطاس :

« - أية مواثيق هذه التي تدفع بها الذئاب؟ مواثيق ترعى مصالح بني زروال؟ كلا يا إخوان.. فلن نقبل إلا ما فيه مصلحة الأجمة وما سواه نضرب به عُرْض الحائط».

ويكثر اللغط ويحتدم النقاش ويُختَتَم بالاحتكام إلى الحيوانات؛ فذلك ما كانت الذئاب تدعوله دوما، والكباش لا تخشى الاحتكام وقد اتسعت قاعدة أتباعها، أما السباع فلم يكن لها أن تتنصل عمَّا التزمت به وتريد أن تُكفِّر عن خطيئتها حين أثخنت في الحيوانات.

ماذا دار في خَلَد أملال لما أن أعلن على الملأ أن السباع قبِلت بالاحتكام إلى الحيوانات؟ هل كان موقنا أن الحيوانات ستضع ثقتها في السباع؟ أم أنه أراد أن يبعث ميراث يوگرثن، السبع الذي ارتضته الحيوانات من كل فصيل؟ أم أنه كان يريد أن يكسب الوقت ليس إلا؟

تساقطت الثلوج مُؤْذِنةً بحلول فصل تاگرْسْتْ. وكان الأجلُ الذي حددته الحيوانات أيامَ وسّان صميدن، حيث يشتد البرد، ليختبر كل فصيل قوته وأتباعه، ولم يعد يفصلها إلا أيام معدودات عن الأجل المضروب. وحمي وطيس الصراع وتراشقت الكباش والذئاب والسباع بأقذع القول.

وقاربت السباعُ الذئابَ خلال فترة السجال، في ليلة ظلماء، فحّدثتها حول موعد الاحتكام ومآل الأجمة، وقالت السباع إن من مصلحة الحيوانات آكلة اللحوم أن تتراص صفوفها، فإذا ما أوتيت الفرصة للكباش أتت على كل شيء، ولذلك وجب تآزر السباع والذئاب لتفويت الفرصة عليها. وأردفت أن ما يهم هو المستقبل، والحيوانات آكلة اللحوم لا تعدم أنصارا من الكلاب والحمير والبغال، وهذه تكره الخراف كرها، فقد أنذرتها الكباش وتوعدتها وحّملتها مسؤولية الفساد. أما الذئاب فقد رأتها فرصة سانحة لمؤاخذة السباع على ما سلف من سياستها فأشبعتها انتقادا، فهي

التي اصطنعت الكباش لمناوأتها فأقطعتها المرعى، وأقرّت البعبعة، وهاهي الآن تجني ثمار قصور نظرها. وانفض الاجتماع ولمّا تتقدمّ السباع والذئاب شبرا في التصالح، ولكن الأبواب لم توصد كلية.

وحلّ يوم الاحتكام، واجتمعت الحيوانات كلها بأسايس. كان يوما مشهو دا لا يقل أهمية عن يوم الاستقلال. أتت الحيوانات من كل فج مذ لاحت أشعة الفجر لتشهد يوم الاختبار، ثم اصطفت الواحد تلو الآخر لترقم بكراعها وقوائمها وحوافرها ومناقرها اختيارها في سجل بمكان منعزل فلا يطلع أحد على اختيارها. واعتلى الحمام أثبير أعلى الدوح ينظر إلى الحيوانات. كانت الفرحة تهزّه هزّا.. فالاحتكام إلى خيار الحيوانات هو السبيل القويم لضمان مَنَعة الأجمة وتلاحم أبنائها.

واستمرت عملية الاختيار طوال النهار، ومالت الشمس إلى المغيب، ولم تتوقف عملية الاختيار إلا وقد أسدل الظلام رداءه. إثرها تلقت الحمير السِّجِل وانزوت في مكان منعزل لتقوم بالعدّ والفرز. وأثناء ذلك تكوّفت الحيوانات في حلقات حول مواقد أورثتها تنتظر نتائج الاحتكام. هناك من حرّكه الطرب، وهناك من استهو ته الخطابة، وهناك من ركَن إلى الصمت. رقصت الأرانب،

وغنى البلبل، وضربت الذئاب أخماسا في أسداس، وتشوفت الكباش إلى الغد الموعود، وترددت الدجاج بين الحلقات تحبب إليها نفسها. أما السباع فقد راغت إلى الصمت. وعند الفجر أذّن ديك أن ساعة الحسم حلت فأهلَّ كبير الحمير، ثم نشر صحيفة وأخذ يتلو:

«جرت في العشر الأواخر من وسان صميدن من ثلاثين تيفساون على جلاء أزروال أمزوارو عملية اختيار من يمسك بزمام الأجمة. وقد أبانت حيوانات الأجمة عن انضباط كبير ووعي بالمسؤولية عميق، وتناقشت السباع والذئاب والكباش، وتنابزت وتلامزت دون أن يمَسَّ واحد الآخر بسوء. وتمت عملية الاختيار في وضوح تام منع كل تدليس أوغش أوإكراه. وأقبلت الحيوانات من كل حدب وصوب لَتَشْهَد اختيار من تُولّيه أمرها. وتحرّت الحيوانات أن يتم عدّ الاختيار وفرزه بحضور ممثلين عن السباع والذئاب والكباش دفعا لكل لبس. وأسندت عملية العد للحمير المؤتمنة على السير العادي للأجمة. وتمخضت نتائج الاختيار عن..»

توقف كبير الحمير، ووجمت الحيوانات، ومدّت أعناقها لتنظر ما حلّ به، فإذا هو يحرك رأسه يمنة ويسرة ليبعد بعوضة علقت به يُسمع أزيزها وقد ران الوجوم على ساحة أسايس ثم هش بذيله

ليبعدها، فلم يزدها ذلك إلا إصرارا. واندلع ثغاء وسط الحيوانات يدعو كبير الحمير أن يسترسل.. ونهق كبير الحمير نهيقا خفيتا :

«نصف عدد الحيوانات وَنيّف اختارت الكباش،

ربعها اختارت الذئاب،

أقل من العُشُر اختارت السباع،

ما تبقي لا يُعدّ لشَوْبه بعيب».

ماذا؟ الكباش قيِّمةٌ على الأجمة بمقتضى اختيار الحيوانات؟ وعلا الصَّخَبُ أسايس، ثغاء وعواء وزئيرا، بِشْرا وقنوطا. وتبدد نهيق كبير الحمير الذي لم تعد تبلغ منه إلا شذرات..

«وبمقتضى اختيار الحيوانات توضع الكلاب والبغال والحمير تحت إمرة الكباش (...)

وتتعهد الكباش بالحفاظ على حياض الأجمة والذَّوْد عنها والسعي لرفعتها (...)

وتستمر السباع في تصريف شؤون الأجمة حتى مطلع فصل تيفسا وإذاك تُسلِّم السباع للكباش مقاليد أمور الأجمة المكلَّفة بتدبير شؤونها بمقتضى ما اختارته الحيوانات».

وتولت السباع إلى عرائنها وذيولها بين قوائمها، وعوت الذئاب منددة بالتزوير وبمخاطر إسناد الأمور إلى الكباش، ونادى الكبش أفرطاس في جموع الحيوانات يهنئها بالنصر ويُثنيها على الثقة التي وضعتها في الكباش :

«إنه ليوم أَغَرّ أن تُعيد الأجمة الصلة بميراثها، ذلك الذي غذّته الحيوانات بأرواحها، وقد تآمرت قوى الشر داخل الأجمة وخارجها لتفصل الحيوانات عن ذكرى تلك التي قضت فِداء للأجمة، وهاهي الأجمة تربط الفرعَ بالأصل..

لقد أبانت الكباش دوما عن وفائها للأجمة وكانت دوما نصيرا لقضاياها المصيرية، وهي لن تألو جهدا في العمل على رفعتها وتقدمها»..

وانساق أفرطاس يُبشِّر بالغد الموعود وحوله أكانْبو ينظر شَزَراً، ثم ثغا الكبش المهصور بثغائه في جملة مقتضبة :

«غدا سينتفي الظلم. غدا سينال كل ذي حق حقه. غدا ستُطهَّر الأجمة من الرِّجْس. غدا..»

عند الصباح رأت الحيوانات شيئا لم تتوقعه حتى إنها حسبت أنّ مسّا أصابها أذهب عنها صوابها. وقد ارتابت أول الأمر، فلما أعادت النظر أدركت أنه اليقين. أصابها الذهو ل وهي ترى السبع أزَلْماط يزأر ألا عمل بما ارتضته الحيوانات من اختيار، وحجتُه أن الكباش أكرهت الحيوانات على اختيارها، وحجته كذلك أن إسناد الأمر إلى الكباش وبال وعاقبته وخيمة، فهي منذ خريف الغضب لم تَكُفَّ عن الدعوة للثأر ونشر العداوة والبغضاء وبثّ الشقاق. وهل يعود السهم إن هو مَرق؟ أوَ يرجع النهر إلى نبعه؟

تستمع الحيوانات إلى أزلماط وهو يعيد في إصرار :

«إنّ السباع إيمانا منها بالمسؤولية التاريخية لن تقبل أن تزيغ الأجمة أوأن تهو ى إلى الحضيض، ولذلك فهي تستجيب لنداء التاريخ والواجب، وتتعهد أن تحتكم إلى اختيار الحيوانات متى انتفت دواعي الإكراه وأسباب الضغط. إن السباع لتُعلن حلقات الكباش

لاغية لدعوتها للشِّقاق، وتحاصر الخروفين أفرطاس وأكانبولما ينطوي عليه خطابهما من مخاطر».

وحُرّر في غُرّة تاگرست، ثلاثون تيفساون، أتون ن يوگرثن.

أهي عودة إلى حكم السباع البغيض هذا الذي بلت منه الحيوانات شر البلاء فلم يُطعمها من جوع ولم يُؤمّنْها من خوف؟ أهي مرحلة انتقالية؟ رددت الحيوانات أسئلة كثيرة دون أن تسبر غور ما جرى أوتفهم ما ينطوي عليه ذا القرار الخطير. أهو تحالف بين السباع والذئاب لتفويت الفرصة على الكباش؟ أهي الكلاب والحمير والبغال أوعزت للسباع باستباق الأمور خشية أن تَقْلِب الكباش أمور الأجمة فتجعل عاليها سافلها، ولا يؤمن أن تُعلِن الذئاب عن انفصالها وتعتصم بالأكمة، فهي لن ترضى بالكباش حاكمة للأجمة. أيكون هو أزروال ويس سين من أوحى للسباع أن تستعيد زمام الأمور؟ فهو لا يحب الكباش، وهي لا تحبه، وله مصالح بالأجمة، وعلى الأجمة ديون مستحقة والكباش تتحلل منها وتتوعد بأن تُفصم كل العُرَى مع بني زروال. ولِم يغيب أملال؟ لقد أعلن أزَلْماط أنه اعتزل. ومتى جهرت السباع بالحقيقة؟ أم أنه عقاب لأملاّل لسوء تقديره للأمور؟ أليس

هو الذي دفع السباع للاحتكام إلى الحيوانات ظنّا منه أنها ستُجمع كلمتها عليه؟

وترددت الذئاب على أسايس فقالت إن ما أقدمت عليه السباع أمر محمود، فلو استتب الأمر للكباش لدفعت الأجمة إلى أسحاق لا تُدرك مآتيها ولا مراميها، وإنَّ منْعَ حلقات الكباش لَعينُ العقل. وقال كبير الحمير إن فصيله لسوف يستمر في تصريف أمور الأجمة كدأبه تحت إمرة السباع، وقال ذات القول كبير البغال.

لقد درأت السباع الخطر في حسبان الذئاب والكلاب والبغال والحمير.

وخيّم الصمت على الأجمة ومَلَك الوجوم الحيوانات الأخرى ثم انصرفت إلى شؤون معاشها.

وتلبّدت السماء بغيوم كثيفة دكناء تزحف رويدا رويدا على الأجمة.

احتفلت الأجمة بذكرى الجلاء واحتشدت الحيوانات بساحة تافسكا تيمنا بالحدث الهام، وتبوأت السباع المصطبة كعادتها، وأجلست حواليها كبير الكلاب وكبير الحمير وكبير البغال، واستضافت بعض الذيبة بالمصطبة. نعم، منذ يوم الاختيار وما تمخض عنه من مدٍّ زاحف للكباش أدركت الذئاب أن مصلحتها تقتضي قبول عرض السباع للوقوف بنيانا مرصوصا في وجه الكباش. وقد خلّت الكلاب سبيل الذئاب ولم تَعُدْ تتعقبها، بل إن صداقة نشأت بينها. وشوهدت الذئاب والكلاب وهي تلهى بعظام، وهو ما لم يكن يخطر ببال من ذي قبل. وغدت عِلْيَةُ الذئاب تقصد الكلاب وتقصف معها في الشِّرب حتى ساعة متأخرة من الليل. وأرادت الكلاب أن تُحوِّل اهتمامها نحو الكباش فألْفَت أنها لا تعرف عنها كبير أمر، فقد كانت دوما تحتقرها، ثم إن لسان البعبعة مستغلَق لا تعرفه الكلاب..

وأخذ أزَلْماط يتلو بيانا، واسترسل في قراءة مُمِلّة في خطاب يُمجّد ذكرى الجلاء وموقف السباع الشهم في دَرْءِ خطر الكباش.

وفجأة سُمعت فرقعة اهتزت لها أوصال الحيوانات وأخرست أزَلْاط، وقّلبت الحيوانات النظر لترى، ويا لشَرّ ما رأت، رأت أن حجرا أُلقي من منجنيق أصاب سبعا. وعمت فوضى عارمة، وطوقت الكلاب المصطبة وأخلت الحيوانات ساحة تافسكا، وحملت الحمير السبع المصاب إلى القصبة، إلا أنه فارق الحياة قبل أن تبلغ به عرينه.

وألْفَت الكلاب صحيفة بلسان بعبعي تتبنى فيه الكباش اغتيال السبع الآشِر وتُنذر السباع بحرب لا تُبقي ولا تَذر.

شُيّعت جنازة السبع القتيل في موكب مهيب، وتحرّت الكلاب كل أسباب الأمن، وفتشت الحيوانات في مراسم الجنازة. وفصل الموكب في اتجاه ساحة تافسكا والحمير تحمل جثة السبع القتيل، والقردة تعزف لحنا شجيا. ورثى أزَلْاط السبع القتيل وتوعد الكباش بشديد العقاب على فعلتهم الشّنيعة.

وتساقطت الأمطار مِدْرارا وفاضت السواقي والوديان وغارت الطرقات وامّحى رسمها، وظلت الحيوانات تتملى خيوطها وكأنها قضبان تنزل من السماء تفصلها عن بعضها البعض.

أحاقت السباع بالكباش عقابا شديدا، فقد نزلت ألمو، محلّتها، ومثّلت بكبرائها وقطعت ألسنة خطبائها وكسرت كراع صغارها، وبقرت ضروع نعاجها لتعتبر ولتكون عبرة لمن تُسوِّل له نفسه التمرد، وأجرت رقابة شرسة على الحيوانات الأخرى ومنعتها من الخروج ليلا.

وقد ساد بعض الهدوء من جراء الإجراءات الصارمة التي اتخذتها السباع إلا أن الأنباء سَرَت بأن كلبين كانا يُعسّان خارج القصبة قُتلا في جنح الظلام.

وازداد وعيد السباع، وضاعفت من إجراءات الأمن والحيطة ففرضت على الحيوانات ألا تخرج زرافات، وإن فعلت تعرضت لعقاب شديد.

وبوغتت السباع بنبأ كمين نُصب لجماعة من الحمير ذهب

بأغلبها، فلما ذهبت السباع لتتفقد مكان الحادث رُميت بصخر من شاهق كاد أن يودي بها، فولَّتِ الأدبار.

ثم ألَّفَت الكلاب صحيفة بأسايس تقول لئن لم يَفُكَّ السباع الحصار عن الكبشين أفرطاس وأكانْبو، ولئن لم تنصع السباع لاختيار الحيوانات فلْتأذنْ بحرب ضروس..

وغشيت الكلاب مرْج ألْمو، وأخذت عشرة كباش بلا تمييز وساقتها إلى أسايس. هنالك خنقتها على مرأى من الحيوانات لتكون عبرة.

واجتمعت السباع بكبير الكلاب لتدارس الوضع. وقد عبّرت السباع عن غضب بائن إذ لم تُفد التحرزات من إطفاء نار الفتنة، وقال كبير الكلاب إن خطر الكباش يكاد أن يخبو، فليس لها قواطع ولا مخالب ولا أنياب، ثم إن رأسيها المحركين لها هما تحت الحصار، وفضلا عن ذلك فقد مسّها ضر كبير من جراء الإجراءات الأخيرة، وما تحركاتها الأخيرة إلا حشرجة المحتضر تنبئ عن النزع الأخير. بيد أن كلابه ارتأت اتخاذ جملة إجراءات تعجيلا لإطفاء التمرد ومنها نفي الكباش حتى يسهل رقابتها، ومنها أيضا حرق مرج ألمو، فيصيب الضر والجوع الكباش فتَهين وتضعف وتستكين.

وأشرف كبير الكلاب على عملية حرق ألمْو. وقف وسط جمع من الكلاب يتملى النار وهي تأتي على المرج، ثم استدار نحو كلابه :

- قُطع دابر الكباش واجُتثت شأفتها، فلتنعم الأجمة بهذه السكينة.

وانقشعت الشمس بعد شتاء شديد، وأهلّ فصل الربيع يحمل معه بشائر الدفء والخصب، وأغرى ذلك بعضَ الأرانب بالفسحة والنزهة، وخرج كبير الكلاب مع رهط من كلابه يتفقد أحوال الأجمة، وسار إلى تيفزا فتيزي، وقصد بعدها شواهق أدرار.

منذ نفي الكباش وحرق ألمْو لم تتعرض الأجمة لحالة عنف، وقد رسّخ ذلك الاعتقاد أن تدابير الكلاب أعطت أُكُلها. ثم إن بني زروال قبلوا أن يُوفِدوا فريقا لإعادة بناء المطحنة، وتلك شهادة منهم على استتباب الأمن وشيوع الاستقرار.

وسار كبير الكلاب في اتجاه أدرار عبر تيزى. كانت الأجمة تبدوآمنة، يجلّلها الخصب والخضرة، ثم مالت الكلاب إلى الممر المفضي إلى تيزي. هنالك سمعت فرقعة اصطكت لها الآذان. ثم علا غبار حَجَب كل رؤية.

وركضت الحمير إلى مكان الحادث وقد سَمعت الفرقعة. فلما بلغت المكان وجدت كبير الكلاب وقد ردخت صخرة رأسه فأرْدته لساعته. وأما الكلاب التي كانت ترافقه فمنها ما قضى نحبه بعد حين ومنها ما أصيب بجراح بليغة..

كانت تلك ضربةٌ موجعة للكلاب، فتدابيرها لم تُفِد، وهي لم تستطع أن تصدَّ الكباش مِن أن تكيل لها ضربةً موجعة باختيارها لرأسها هذا الذي أوحى بنفي الكباش وأشرف على إحراق ألمو. وأما هيبة السباع فقد تناثر ما بقي منها، وأصبحت سلامتها رهينة بأسِنَّتها وتحوطاتها، فعمدت بعدها على تشديد الحراسة حول القصبة..

ولم تُجْرَ مراسم جنازة كبير الكلاب، فقد خشيت الكلاب أن تتعرض لكمين تنصبه لها الكباش. ولم يُعلَن كذلك عن يوم دفن كبير الكلاب ولا مكانه. واتخذت الكلاب تحوطات جديدة ومنها استبدال فرق الحراسة وتبديل الطرق التي ترتادها وارتداء أقنعة ليستعصي تمييزها ولكي لا تتعرض للانتقام.

واستقبلت السباع أزروال ويس سين وفريقَه، وكان في كلامها له تحذير. فليس له أن ينفَض يديه عن الأجمة، فله مسؤوليات لا

يمكن أن يتنكب عنها، ولبني قومه مصالح متداخلة، وإن هو تلكأ لم يمنع ذلك من قيام عهد الكباش، وإذاك فلن يحلم بنو زروال في أن تطأ أقدامهم أرض الأجمة...

واستمع أزروال ويس سين إلى شَكاة الّسباع ووعد أن يُقدّم العون فيوفرَّ للأجمة القروض لتستكمل إصلاح المطحنة، وإذا ما رَشَحَت عوائدها وعمّت خيراتها الحيوانات فقدت الكباش أنصارها. فرأس الداء هو فاقة الحيوانات وقلة مؤونتها. ونصح السباعَ في أن تستمر فيما ارتضت من تخصيص شؤون الإتجار إلى الدجاج خاصة. وهمس أزروال ويس سين للسباع أن الأمن لن يستتب برقابة الكلاب وحدها، إذ لا بد من إصلاحات في تصريف موارد الأجمة وتوزيعها، ومنها التخلص من بعض مرافق الأجمة ومنها المعصرة، وهي أهم موارد الأجمة وأوصاها أن تُراعى بالأجمة حقوق الحيوان، فبلاد أزروال لن تسكت عن أي تجاوز يَمَسُّ حقوق الحيوانات في التعبير والتفكير، وكان يعني الذئاب، أما الكباش فلم يكن يهمه شأنها.

وغادر أزروال ويس سين القصبة وفيلق من الكلاب يحميه.

حلّت بديار أجمة الأحرار أعداد من بني زروال لإصلاح المطحنة. وقد أحاطتهم السباع بالحماية فأمرت الكلاب بحراستهم تحسُّبا لأي مكروه قد يتعرضون إليه، فلا يليق أن يشيع عن السباع أنها لا تبسط سيطرتها على الأجمة، وبنو زروال إن مس الأذى واحدا منهم أقاموا الدنيا وأقعدوها. وقد وعد أزروال ويس سين أن يُقدّم العون فوق. وقد صرفت السباع لوفد بني زروال من الحماية ما تصرفه على نفسها أو يزيد.

وقد بذلت السباع كل ما في وسعها لكي تبدو الأجمةُ آمنة، فأقامت حفلا دعت فيه القردة للرقص والغراب للغناء، وحشرت الكلابُ الحيوانات حشرا بأسايس ليعلم بنو زروال أن السباع قد أشاعت الأمن وأطفأت فتيل التمرد، ولكن الحقيقة غير ذلك. فقد كان التوتر يسود الأجمة. وقد غلب الوجوم الحيوانات، ولم تعد تجهر بما يخالجها ولا تثق بمن يحيط بها. ثم إن ما تراه في طريقها من كلاب مُقنَّعة يُرهبها ويُرسّخ الاعتقاد أن مقالة السباع عن الأمن واهية، وإلا لِم هذه الأعداد المتكاثرة من الكلاب الضارية في كل ممر وبكل مكان.

وقد تكلمت بعض الحيوانات همسا وقالت إن الرعب الذي يسود هو أشبه بذلك الذي عرفته الأجمة خلال كفاحها من أجل التحرير سِوى أن الحيوانات إبّان معركة التحرير كانت ترى فجرا ينبثق من حلكة القهر والاستعباد، أما الآن فهي لا ترى فجرا يلوح أوبصيصا يظهر في الأفق.

وتردّدت بعض الأنباء أن الكباش القرناء ذات البأس والشدة أُسْرت إلى الأكمة واختفت هناك، وأن نفوذ السباع لا ينبسط على الأجمة كامِلها.

ثم إن بعض الذئاب عزمت أن تَشُدَّ الرحال إلى بلاد بني زروال، وقيل إن رهطا من الأرانب جازت التخوم لتَسْريَ إلى بلاد بني زروال، إلا أن جنوده ردّتها على أعقابها، وتردد أن منها ما ركبت البحر فبلغت مأمنها، ومنها التي غرقت فالتقمها الحوت. وتردد كذلك أن بعض الحمير مما خشيت على حياتها رحلت فعلا إلى بلاد أزروال لتشتغل حمالة الحطب هناك، وكذلك فعلت بعض البغال.

واشتكى البلبل للحمام أثْبير أمْزيان أنه لم يعد يستطع الغناء، وأن صوته ليتبدد وسط فرقعة الصخور وصفير الحجارة. وَمنْذا يستمع لغنائه والحيوانات منصرفة لقضايا أمنها وأمور معاشها وشؤون حياتها.

قـال البلبـل :

- أحيانا تعروني الرغبة أن أطير بعيدا عن هذا الهواء الذي ألفته، وهاته التربة التي درجت فيها لِما أراه من نُكْر.

وردّ الحمـام :

- وهل تحسب حنجرتك تستقيم خارج الأجمـة؟ كلا، فلئن رحلنا ذَوِينا كما تذوي الأشجار إن هي اجتثت من جذورها.

قـال البلبـل :

- فأنا لا أستطيع الغناء هنا.

قـال الحمـام :

- ولن تستطيع هناك.. فأنت لست حمارا يتعقب الكلأ حيث يكون، ولست حمالة أثقال لا تحسن سواها. ولست بغلا لا يفقه إلا ما عُلّم. كلا، فنحن معشر الطير نتملى الأشياء فنتركها تنطبع في أذهاننا، وقد يأتي علينا حين من الدّهر لا نأتي أمرا، نتملى ونتدبر فإذا نضجت رُؤانا واستقامت في أذهاننا جهرنا بها لا نستطيع أن نكتم، فكيف تُرانا نفر من أنفسنا، بل هو واجب أن نلازم إخوتنا وإن غشيت أبصارهم، فلعل في بصيرتنا ما قد ينيرهم.

قـال البلبـل :

- صدقت.

وساد بينهما صمت وهما في أعلى الدوح. قال البلبل بعد حين :

- أفتأذن لي أن أغني فإني أشعر برجّة تهزني لست أستطيع كبحها.

قـال الحمـام : فـافعـل.

وأنشد البلبل غناء حزينا عن أجمة الأحرار وكيف هوت إلى غير قرار، وكيف عَشَتْ فأضحت بلا بصيرة وقد كانت منارة تأتم بها أجمات الغاب، وتأسّى لأطياف بنيها وقد ضلوا ضلالا كبيرا. ثم ختم بالشدو : تئن الرياح، ويتوارى القمر وتدمـع السماء، أفـلا يتبدد الغيم بعد هذه الأنواء، أفلا ينقشع الضياء؟

ثم استعبر البلبل وقال :

- كم كنت أود أن أغني على المـلأ لأُشـرك إخـوتي من الحيوانات لوعتي.

وأخفى الحمـام أثير أمزيان دمعة كادت تفضحه.

تكوّفت الكلاب في صباح باكر غير بعيد من المطحنة ومنعت بقية الحيوانات أن ترتاد الطريق المُفضية إليها، وشاهدت الحيوانات أزروال ويس سين وهو يجري إلى القصبة وأمارات الغضب باديةٌ عليه، فأيقنت الحيوانات أن الخطب جلل. وطال ارتقاب الحيوانات حتى الأصيل وقد مالت الشمس إلى المغيب. ونزل السبع أزلْماط إلى أسايس ليتلو بيانا قال فيه :

«لقد امتدت قوائم الكباش إلى واحد من بني زروال ممن يشتغلون في بناء المطحنة فقتلته، وحيوانات الأجمة من كل فصيل تُدين هذه الفعلة الشّنعاء وتتوعد مقترفيها بأشّنع العقاب».

هاهي الكباش تضرب في العمق ثانية لتنسف العلاقة بين السباع وبني زروال وتُجهض دعوته في تصريف رشيد لموارد الأجمة. فجانب من مصدر قوة السباع استئثارها بموارد المعصرة وتدبير شؤون المطحنة، وفي هذا تلتقي مصلحتها ومصلحة بني زروال. وما

دام هذان القطاعان بيد السباع فإنه يعسر على الكباش أن تزيحها عن مقاليد الأجمة. كانت الكباش تريد أن تفضح أزروال ويس سين وتورُّطَه في حماية السباع واستنزاف موارد الأجمة. وغضب أزروال ويس سين غضبا شديدا وأقذع للسباع في القول. وكيف يستطيع مساعدتها وهي أعجز من أن تضمن سلامة بنيه. وهدد بالرحيل، وإن هو فعل فإنها الطامة الكبرى التي سوف تتأذى منها سطوة السباع، فأملها معقود على مساعدة بني زروال وإعادة بناء المطحنة. وقالت السباع بعد أن هدأت ثائرة أزروال ويس سين، إن توقيف التعاون نذير باستيلاء الكباش على مرافق الأجمة، ويعلم بنو زروال أي موضع يضعهم الكباش.

وقال أزروال ويس سين إنه سيوفد جندا من بلاده يحمون فصيلته، واعترضت السباع وقالت إن الحيوانات إن رأت جند بني زروال بالأجمة ثارت ثائرتها لحساسيتها المفرطة لكل ما يُذكّر بماضي الاحتلال. ثم إن الكباش ستستغلها ذريعة لتُشهد الحيوانات : «ها أنتم انظروا بأم أعينكم، فما السباع إلا صنيعة ابن أزروال وخلْفٌ له..» كلا، لن تُرخّص السباع لجند بني زروال. وتشاكست السباع مع أزروال وسين وانتهت إلى حل وسط وهو

أن يتربص جند بني زروال بـداخل المطحنة فـلا يُرَون للعيـان، وَتعُس الكلاب خارجها. ووعدت السباع أن تضاعف من إجراءات الأمـن فلا يتكرر ما حدث.

واجتمعت السّباع بالكلاب طويلا وأمرتها بالحزم والشدة. وسارعت الكلاب في تنفيذ ما أمرت به السباع، بل وغلَت في ذلك فأوقفت حيوانات كثيرة من غير جريرة.

ويوما أفـاقت الحيوانـات على خبر مهو ل، فلم تعـد الفتنـة توفر أحـدا، وقـد تلتهم ألسنتها حتى البعيدين عن نـار الصراع، ذلك أن أرنبا وأرنبة كانا يَرْتَعان قرب نبع تـالا وُجدا قتيلين. وقـد أنحت السباع باللائمـة على الكبـاش التي لا تتورع في ضرب الأبريـاء العُزّل مما لا ذنب لها من الحيوانات، وأشهدت الحيوانات على ضراوة الكباش وقسوتها. وفي الغد وجدت الحيوانات صحيفة عليها صك الكباش تقول إن قلوب السباع لهي كالحجارة أوأشد قسوة، فلقـد قتلت أرنبين بريئـين وألصقت جريمتها الشّنعـاء بالكباش، والكباش تُدين الجريمة وتعتبرها من تدبير السباع ومن فِعْلاتها الخسيسة.

ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد، فقد وُجد البلبل قتيلا مضرجا في الدماء.

قتلوا البلبل. قتلوا صناجة الأجمة، ذلك الذي كان يُطربها إذا دعا داع الطرب ويواسيها إن تحرك باعث الشجن. ومن سيستحث بعد اليوم هِمَمَها؟ من يُعبر عن وعيها؟ ما أسمج الأجمة الآن وما أحزنها وقد رحل عنها لسان حالها.

وتبادلت السباع والكباش الاتهامات، وضاعت بينهما الحقيقة.

واحتشدت الحيوانات تُودِّع فقيدها، ابن الأجمة البار مَن نذر حياته لها ولم ينفرد بشيء دونها. ناهض الظلم وجهر ضد الطغيان وتلظى جرّاء ذلك. وما ذنب البلبل؟ ولِم قتلته قوائم الغدر، ولِم يغتاله الظلمة الجاهلون؟ وبكى الحمام أثبير أمزيان بُكاء مُرّا. كان يبكي فقيده ويبكي الأجمة. فلقد مسّها مسّ أفقده صوابها. وإلا فما هذا التمادي في الضلالة حتى إن دعوتي العقل والقلب لا تنفذان إليها، وإنما هي دعوة الثأر والعقاب، وأي دعوة هذه التي لا ترعى ذكرى الماضي ولا تُبقى ذَماء من أمل.

واختلط الحابل بالنابل، وسارت أحوال الأجمة من سيء إلى أسوأ، كل يوم يطل يحصد مزيدا من الضحايا. واستعر القتال بلا هوادة ولمَّا ينقطعِ النزيف.

وحدث أن كباشا دعت للصلح ووقف القتال وقد رأت أن نار الفتنة إن هي لم تُطفأ ستأتي على الأجمة. وجنح بعض السباع للسلم. وثارت ثائرة كباش من الكباش القرناء تأبى الصلح ولا ترى إلا العراك سبيلا. وأبت سباعٌ الجنوح للسلم واعتبرته استسلاما ونادت باستئصال الكباش. وعوت ذئاب أن الصلح مع الكباش خذلان وخسران.

قال الراوي : ومازالت السباع والذئاب والكباش في عراكها وصراعها، ثم إن الحمام أثبير أمْزيان أرسل هديله :

«وأما الأجمة فميراث مشترك، وليس لفصيل أن يستأثر بها دون آخر. فهي ملك للسباع وللذئاب وللكباش ولكافة الحيوانات. وهو ملك تصاغ بنوده ككل عقد عند كل جيل»، ثم تذكر أنشودة البلبل فسجع بهديله الحزين :

- «وستورق الأشجار بعد ذبولها، وتجود السماء بعد مَحْلِها، وتُزهر الأرض بعد قحطها، وينقشع النور بعد الظلام، وتلتئم جراح الأجمة، ويعم التآخي كافة بنيها الأحرار».

واشنطن 24 نونبر 1994
(Thanksgiving day)

ثم إن الأسد إزم أخذ يفاتح أزروال الحيوان الذي يمشي على قدمين، في شؤون الأجمة ويشركه مشاغله. فالكلاب هرمت، والدجاج تستغل المخزن لأغراضها، والذئاب رغم ذكائها ومهارتها لا تُؤتمن، فهي لا تزال تعتبر نفسها الأحق بتسيير الأجمة، والخراف رغم عددها فهي لا تصلح لإدارة المخزن، ولا هي ذات خبرة، والكلاب والذئاب لن تقبل بها قيّمةً على المخزن. أما الحمائم فحالمة رغم سَعة اطلاعها، وأما الأرانب فلاهية.

64,00 درهما